ابن سيده: والمخصص.. وشخصيته فيه..

للدكتور/ فوزى يوسف الهابط

أستاذ مساعد بقسم أصول اللغة

كلمة بين يدى البحث!!

جمعنى الزمان والمكان، مع كوكبة من علماء اللغة المتخصصين، تحلقوا حول فكرة رائعة- وإن كانت شاقة- ألا وهى: تحقيق عمدة معاجم الموضوعات- المخصص لابن سيده- تحقيقا علميا يسد أوجه الخلل المتناثرة فيه.

وقد ثار تساؤل- وسط هذا الجمع المبارك- حول ابن سيده، ومقدار بروز شخصيته فى مخصصه.

وأفاد البعض أن هناك من الباحثين من يتهم ابن سيده، بأنه مجرد ناقل لما جمعه جماع اللغة الأوائل، كالأصمعى، وأبى زيد، وأبى عبيد، والخليل، وغيرهم.

ثم أبدوا رغبتهم فى تمحيص هذا الأمر، وإبراز وجه الحق فيه. فاستأذنتهم أن أقوم ببحث حول هذا الموضوع، أعرّف فيه: بابن سيده، وظروفه الاجتماعية، وآثاره العلمية- وبخاصة كتابه: المخصص- ثم أعرّج على اتهام هؤلاء الباحثين له، فأمحصه، وأخرج منه برأى.

وقد شجعنى المجتمعون على القيام بهذا العمل، وتابعوا معى مراحل البحث، إلى أن استقام على عوده، وأثمر ثمرته المطروحة الآن بين أيديكم، والتى أرجو لها أن تكون ثمرة ناضجة، شهية، تعود بالخير، والفائدة، على من يجوس خلالها، ويسير فى دروبها.

ومما لا شك فيه: أنه لم تُقَل الكلمة الأخيرة، فى أى قضية دنيوية مثارة!

وهذا جهدى المتواضع، فإن كان الصواب حليفى: فهذا من توفيق الله تعالى، ثم رعاية أساتذتى الأجلاء.

وإن كانت الأخرى: فهذا من تقصير يراعى، الذى لا يزال يحبو على مدرجة طريق السالكين إلى صوى العلم.

تمهـــــيد

يعد ابن سيده: خاتمة أصحاب معاجم الموضوعات، التى ظهرت فى العصر العباسى الثالث (٣٣٤- ٤٤٧ هـ) وهو ما يسمى- فى تاريخ الأندلس- بعصر ملوك الطوائف.

ذلك العصر الذى امتاز بنضوج علوم اللغة فيه، ونبوغ طائفة من العلماء والمؤلفين[١].

وقد قيل عن ابن سيده: إنه «لم يكن- فى زمانه- أعلم منه بالنحو، واللغة، والأشعار، وأيام العرب، وما يتعلق بها»[٢].

كما قيل عنه- أيضا-: إنه كان «رأسا فى العربية، حجة فى نقلها»[٣] كما كان «نادرة وقته»[٤].

ولكن: من ابن سيده... هذا؟!

هو رجل اشتهرت كنيته (ابن سِيدَهْ: بكسر السين المهملة، وسكون التحتية وفتح الدال المهملة، وبعدها هاء ساكنة)[٥] أكثر من شهرة اسمه!!

بل أنْست الناس اسم أبيه، فوقع الخلاف بين المؤرخين، حين أرادوا ذكر نسبه!

ولذلك: قال ياقوت الحموى[٦]- مسجلا هذا الخلاف-: «قال الحميدى: [هو] على بن أحمد، وفى كتاب ابن بشكُوال: على بن إسماعيل، وفى كتاب القاضى صاعد

١- انظر: تاريخ آداب اللغة العربية- جرجى زيدان- مراجعة: د. شوقى ضيف: ٢/ ٣٠٦، ٣١٣ نشر: دار الهلال.

٢- السيوطى- بغية الوعاة- تح. محمد أبو الفضل: ٢/ ١٤٣ ط. عيسى البابى الحلبى بمصر.

٣- ابن العماد الحنبلى- شذرات الذهب: ٣/ ٣٠٥ نشر: المكتب التجارى ببيروت.

٤- القفطى- إنباه الرواه- تح. محمد أبو الفضل: ص ٢٢٥: نشر دار الفكر العربى بمصر.

٥- انظر: شذرات الذهب: ٣/ ٣٠٦.

٦- معجم الأدباء: ١١: ٢٣١، ٢٣٢ ط٣ سنة ١٩٨٠م- نشر: دار الفكر للطباعة والنشر.

الجيانى: على بن محمد- فى نسخة- وفى نسخة: على بن اسماعيل».

وترددت أصداء هذا الخلاف- حول اسم أبيه- فى معظم كتب من ترجموا له[١].

لكن بعض المصادر، نصت على أنه: على بن إسماعيل بن سيده، المرسى، الملقب بأبى الحسن[٢].

وهذا ما أذهب إليه، وأسانده، فبهذا الاسم: سماه كاتب المخصص، حيث قال- فى مفتتحه[٣]:

«قال أبو الحسن: على بن إسماعيل، النحوى، اللغوى، الأندلسى، المعروف بابن سيده»

وكاتب المخصص- فى اعتقادى- أقرب إلى ابن سيده- زمانا ومكانا- وأعرف به من غيره، ولذلك: كتب ما هو معروف من اسمه، ولو كان يعلم غير ذلك: لتردد فى ذكر الاسم صريحا، أو أعلمنا أن له اسما آخر.

وبهذا الاسم: سماه- أيضا- ابن قاضى شُهبة (أبو بكر بن أحمد- ت ٨٥١هـ)- فى كتابه: الإعلام بتاريخ الإسلام، وكتبه بخطه[٤].

ومن ترجموا لوالده: قالوا عنه[٥]- أيضا-: إنه «إسماعيل بن سيده، والد أبى الحسن بن سيده، من أهل مرسيه».

١- انظر: إنباه الرواه: ص ٢٢٥، بغية الوعاه: ٢/ ١٤٣، بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس- الضبى: ص ٤٠٥ نشر: مجريط ١٨٨٤م.

٢- انظر: الصلة: فى تاريخ أئمة الأندلس- لابن بشكوال- نشر وتصحيح: السيد عزت العطار: ص ٣٩٦ ط ١٩٥٥م، مرآة الجنان، وعبرة اليقظان- لليافعى: ٣/ ٨٣ نشر الأعلمى ببيروت، وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان- لابن خلكان- تح. د. إحسان عباس: ٣/ ٣٣٠ نشر: دار صادر ببيروت.

٣- ج١ ص٢ ط المط الأميرية ببولاق.

٤- انظر: الأعلام للزركلى: ٤/ ٢٦٤ ط ١٠ دار العلم للملايين.

٥- الصلة: ١/ ١٠٥.

ميلاد ابن سيده:

لم يذكر أحد- من المؤرخين لحياته- تاريخ ميلاده بالتحديد! ولكن أغلب من ترجموا له: اتفقوا على أنه توفى عام ثمانية وخمسين وأربعمائة هجرية[١]، وسجل ابن خلكان[٢]، وابن العماد[٣]: وفاته فى أحداث هذا العام.

كما اتفقوا على أن عُمره- حين مات- كان نحوا من ستين سنة[٤] وبذلك أستطيع أن أذهب إلى أن مولده كان فى حدود: سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، هجرية.

مكان مولده:

لم ينص بعض من أرخوا له، على البلد الذى ولد فيه!

ولكن بعضهم الآخر[٥]: ذكر أنه من أهل مُرسِيَه (بضم الميم، وسكون الراء، وكسر السين المهملة، وياء مفتوحة خفيفة، وهاء)[٦].

وهى مدينة فى شرق الأندلس، من أعمال تُدْمير، المتصلة بإقليم جيَّان، شرقى قرطبة[٦].

وقد نسبه بعضهم إليها، فقال[٧]: إنه على بن إسماعيل، المعروف بابن سيده، المرسى.

١- انظر: بغية الوعاة: ٢/ ١٤٣، بغية الملتمس: ص ٤٠٦، مرآة الجنان: ٣/ ٨٣.
٢- وفيات الأعيان: ٣/ ٣٣٠.
٣- شذرات الذهب: ٣/ ٣٠٥.
٤- انظر: وفيات الأعيان: ٣/ ٣٣٠، بغية الوعاة: ٢/ ١٤٣، شذرات الذهب: ٣/ ٣٠٦، إنباه الرواه: ٢/ ٢٢٧.
٥- ابن بشكوال- الصلة: ٢/ ٣٩٦.
٦- انظر: معجم البلدان- ياقوت الحموى- بتحقيق: فريد الجندى: ٥/ ١٢٥ نشر: دار الكتب العلمية ببيروت، وفيات الأعيان: ٣/ ٣٣٠، الشذرات ٣/ ٣٠٦.
٧- انظر: وفيات الأعيان: ٣/ ٣٣٠، شذرات الذهب: ٣/ ٣٠٥.

كما أن سيرة والده: توضح أنه كان «من أهل مرسيه»[١].

بالإضافة إلى تلك الحادثة المشهورة- التى حدثت لابن سيده فى مرسيه- والتى روتها أكثر المصادر المؤرخة لحياته، عن أستاذه: أبى عمر الطلمنكى (ت ٤٢٩ هـ) الذى قال[٢]:

«دخلْت مُرسيه، فتشبث بى أهلها، يسمعون علىّ (غريب المصنف) فقلت لهم: انظروا لى من يقرأ لكم، وأمسك أنا بكتابى، فأتونى برجل أعمى، يعرف بابن سيده، فقرأه علىّ، من أوله إلى آخره، فتعجبت من حفظه»!!

وكل هذا يدلنا، على أنه ولد فى مرسيه، وعاش فيها حتى بلغ مبلغ الرجال.

موقف المؤرخين من سلسلة نسبه، وأصله، وأخباره:

على الرغم من الشهرة الواسعة، التى حظيت بها مؤلفات ابن سيده: فإن موقف المؤرخين معه كان عجيباً!

فقد صمتوا عن أن يذكروا- من سلسلة نسبه- شيئا آخر، غير اسم أبيه وجده، فهو- عند أكثرهم، كما ذكرت- على بن إسماعيل بن سيده.

و«سيده»- الذى يعد هنا بمثابة الجد- لم تفصح لنا مصادر تأريخه- أيضا: هل كان الجد المباشر؟ أم أنه أحد الأجداد البعيدين، الذى حمل اسمه، وأصبح لقبا له؟

وهذا اللقب (ابن سيده) يشير لنا إلى أنه أعجمى الأرومة.

ويعضد هذه الإشارة: انقطاع سلسلة النسب، ووقوفها عند الجد، وهذا يخالف ما كان عليه العرب، من حرص على سلسلة النسب الطويلة، التى

١- انظر: الصلة: ١/ ١٠٥.

٢- الوفيات: ٣/ ٣٣٠، الصلة: ٢/ ٣٩٧، بغية الوعاة: ٢/ ١٤٣، الإنباه: ٢/ ٢٢٧.

تفصح عن عروبتهم الناصعة[١].

علما بأنى لم أقف على معناه، ولم أجد ما يشير إلى اللغة الأعجمية التى قدم منها.

كما أن هؤلاء المؤرخين، لم يذكروا من أخباره إلا النزر اليسير، الذى لا يكفى لإلقاء الأضواء الكشافة، على حياته بالتفصيل.

فهم لم يذكروا لنا من أنباء طفولته: إلا أنه ولد أعمى، لوالد أعمى[٢]!

وربما كان لهذه العاهة أثر فى تكوينه العقلى، وقوة ذاكرته، وتمتعه بالذكاء، والفطنة النادرة المثال[٣].

وليس غريبا- إذن- أن لا يذكروا لنا من أنباء شبابه، إلا تلك الحادثة- السابقة الذكر- والدالة على عبقرية حفظه، والتى رواها أبو عمر الطلمنكى، وتعجب فيها، من حفظ ابن سيده، لكتاب «غريب المصنف» عن ظهر قلب!!

ولم يكن غريبا- أيضا- أن يصفه بعضهم[٤]- بعد ذلك بأنه «كان حافظًا» أو ينعته آخرون بالحافظ[٥]، أو يذكر آخرون أنه كان إماما فى اللغة، وفى العربية، حافظا لهما[٦].

أما عن تلمذته:

فإنهم لم يذكروا منها ما يشفى الغليل أيضا! وقصارى ما ذكروه- فى هذا

١- انظر: الحركة اللغوية فى الأندلس- ألبير حبيب مطلق: ص ٣٥٢ نشر: المكتبة العصرية بصيدا.

٢- انظر: الوفيات: ٣/ ٣٣٠، الشذرات: ٣/ ٣٠٥، الصلة: ٢/ ٣٩٧، بغية الملتمس: ص ٤٠٥، بغية الوعاة: ٢/ ١٤٣، معجم الأدباء: ١١/ ٢٣١، إنباه الرواه: ٢/ ٢٢٥.

٣- انظر: الحركة اللغوية فى الأندلس: ص ٣٥٤.

٤- بغية الوعاة: ٢/ ١٤٣.

٥- انظر: وفيات الأعيان: ٣/ ٣٣٠، مرآة الجنان: ٣/ ٨٣.

٦- انظر: بغية الملتمس: ص ٤٠٥، الصلة: ٢/ ٣٩٧.

الأمر- هو أنه: تلمذ على والده فى أول الأمر[١]، وروى عنه[٢].

وقد كان والده هذا: من النحاة، ومن أهل المعرفة والذكاء، التقى بأبى بكر الزبيدى (ت ٣٧٩ هـ) وأخذ عنه مختصر العين، وتوفى بمرسيه بعد الأربعمائة بمدة[٣].

كما ذكر المؤرخون لابن سيده: أنه تلمذ- أيضا- على: صاعد بن الحسن البغدادى[٤]، وروى عنه[٥].

وكان «صاعد» هذا من بلاد الموصل، كما كان فصيح اللسان، حاضر الجواب، سريعه، يجيب عن كل ما يُسأل عنه غير متوقف، فنسب - لإكثاره- إلى الكذب! وقد ارتحل إلى بلاد الأندلس، ودخلها فى حدود سنة ثمانين وثلاثمائة، وبقى فيها حتى خرج منها- أيام الفتنة- إلى صقلية: التى مات بها، قريبا من سنة عشر وأربعمائة هجرية، وقد أسن[٦].

وذكر مؤرخو ابن سيده: أنه تلمذ- أيضا- على ابى عمر الطلمنكى بعد أن تعرف عليه فى مرسيه- وروى عنه[٧]. وأبو عمر هذا: محدث، مفسر وقارئ، لغوى مقتدر، توفى- فى طلمنكه- سنة تسع وعشرين وأربعمائة هجرية[٨].

وأشار هو فى أرجوزته، إلى أحد أشياخه، وهو نافع، المشهور بأبى عثمان، حيث قال:

١- انظر: الوفيات: ٣/ ٣٣٠، الشذرات: ٣/ ٣٠٦.
٢- انظر: الصلة: ٢/ ٣٩٦.
٣- المرجع السابق: ١/ ١٠٥.
٤- الوفيات: ٣/ ٣٣٠، الشذرات: ٣/ ٣٠٦.
٥- الصلة: ٢/ ٣٩٦.
٦- انظر: إنباه الرواه: ٢/ ٨٥- ٨٩.
٧- الوفيات: ٣/ ٣٣٠، الشذرات: ٣/ ٣٠٦، الصلة: ٢/ ٣٩٦.
٨- انظر: معجم البلدان: ٤/ ٣٩ ط دار صادر ببيروت، الديباج المذهب- لابن فرحون بتحقيق: د. محمد الأحمدى أبو النور: ١/ ١٧٨- ١٨٠ نشر: دار التراث بمصر.

ثم قرأت علم سيبويه
لب الفؤاد فهما عليه
على أبى عثمان شيخى نافع

ونافع هذا اسمه: سعيد بن سليمان، أبو عثمان الهذلى، الأندلسى، الملقب بنافع، لملازمته القراءة بحرف نافع.

أخذ القراءة عن أبى الحسن على بن بشر الانطاكى، وتصدر للإقراء، حتى مات سنة إحدى وعشرين وأربعمائة، فى جمادى الأولى، بدانية[١].

ثم يصمت المؤرخون عن ذكر أى أحد آخر، ممن أفاد منهم ابن سيده، وجلس بين أيديهم متعلما، مع أن النفس تتوقع أن يكون هناك آخَرون، أثروا مجال التعليم عنده[٢]، حتى جعلوا منه «ابن سيده» الذى ملأ أسماع الزمان!

أما تلاميذه:(*)

فإنهم لم يكونوا كثيرين، وربما كان ذلك بسبب عزلة ابن سيده، وعدم ميله إلى الاختلاط بالناس، أو أنه لم يعر الأخذ أو الرواية عنه اهتماما كبيرا، بسبب مشاغل حياته الأخرى.

والذين عُرفوا من تلاميذ ابن سيده، هم:

١- أبو عبد الله: محمد بن خلصة الشذونى، كان ممن اختص بمجاهد العامرى، وله فيه مدائح، كما كان من المقدمين فى علوم اللسان- توفى قريبا من سنة ثمان وستين وأربعمائة.

٢- أبو بكر: محمد بن على بن خلف النحوى، كان اهتمامه منصرفا إلى

١- غاية النهاية فى طبقات القراء- ابن الجزرى- تحقيق: برجشترأسر: ١/ ٣٠٦ نشر: مكتبة المتنبى بالقاهرة.

٢- وانظر: الحركة اللغوية فى الأندلس: ص ٣٥٧.

*- انظر فى هذا: ابن سيده: آثاره وجهوده فى اللغة- د. عبد الكريم النعيمى: ص ٥٩- ٦٤ منشورات وزارة الثقافة العراقية.

النحو، حتى برّز فيه، وتصدر لتعليمه بمرسيه- توفى سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة.

٣- أبو جعفر: أحمد بن على بن خلف المرسى، أخو أبو بكر الآنف الذكر، كان مثل أخيه نحويا ماهرا، ومعلما للعربية- توفى قرب الخمسمائة هجرية، على حد قول بعض المؤرخين.

٤- أبو إسحاق: إبراهيم بن أبى الفضل بن صواب المجرى، من أهل شاطبة، اعتنى بالعربية واللغة والآداب، واشتغل بتعليمها متجولا فى البلاد، حتى استقر بمدينة فاس سنة ست وخمسمائة.

٥- أبو عبد الله: محمد بن عيسى بن معيون، الفارض، كان أكثر اهتمامه بالفرائض والحساب.

٦- نصر بن عيسى بن نصر بن سحابة، لم يأخذ عن ابن سيده إلا يسيرا، وكان له اهتمام بالعروض.

٧- القاضى: أبو عمر: أحمد بن محمد التميمى، روى بعض تواليف ابن سيده- وتوفى سنة سبع وستين وأربعمائة.

٨- الفقيه: أبو سليمان بن أبى محمد: على بن أحمد بن سعيد بن حزم- أخذ عمن أخذ عن ابن سيده.

صمت المؤرخين تجاه تفاصيل حياته!

ويصمت المؤرخون- أيضا- عن الإفصاح، عن تفاصيل حياته ومعيشته، أثناء فترة الاعتماد على النفس، فترة ما بعد بداية الشباب، وقبيل بداية الكهولة!!

لكنى ألمس- من خلال أناته، ونفثاته، التى نفثها فى مقدمة المحكم- مقدار ما كان عليه حاله من شقاء، وظروف صعبة، وعيش نكد، سواء أكان ذلك فى بلده (مرسيه) أو فى (دانية) التى انتقل إليها، ليكون فى معية حاكمها: أبى

الجيش مجاهد بن عبد الله العامرى (ت ٤٣٦ هـ).

فقد وجدته يقول[١]: إنه يعيش- فى دانية- «بين أناس لولا الشكل لم تقض لهم بالإنسانية، ولولا الحس: ما حكمت لهم بالحيوانية».

كما رأيته: يشير إلى سوء حاله فى (دانية)، كما كان سيئا فى (مرسية) قائلا[١]: «ثم إن الأيام عاضتنى من الرمضاء بالنار، وبدّلتنى من الصدى: شدة الأوار، فأزعجتنى عن ذلك الوطن الخبيث، والسكن الغث الرثيث: إلى سباخ ذفرة[٢]، وشطآن بحار دفرة[٢]، أوحش بلاد الله غربة، وأخبثها عنصرين: هواء وتربة»!

ويصف أهلها قائلا[١]:

«يتطارحون على الدرهم والدينار، ولا يتوقون قبح الأحدوثة، ولا انتشار العار».

ثم يصف عيشه فيها قائلا[١]:

«مع ما تأثفنى[٣] فيها من نكد المعاش، وقلة الانتعاش، وعدم المؤاسى، والصبر- من أحوالها- على حدود المواسى».

وأعتقد أنه عرض حالته تلك، فى مقدمة المحكم- الذى كان سيقدمه لأمير المدينة (أبى الجيش)- حتى يطلعه على حالته السيئة، ويجعله بصيرا بما آل إليه عيشه.

وذلك: لأن انشغال (أبى الجيش) بالحروب المتوالية- على ما يبدو- كان صارفا له عن الاهتمام بأمر معاش ابن سيده وأمثاله، من العلماء الذين كانوا فى معيته.

١- مقدمة ابن سيده للمحكم- بتحقيق: السقا ونصار: ١/ ١٦، ١٧ ط. عيسى البابى الحلبى بمصر.

٢- أى: منتنة الريح.

٣- أى: اجتمع حولى.

وتجنبا لغضبة الله، ثم أبى الجيش، الذى سيقرأ هذه الشكوى، عندما يقرأ المحكم: نجد ابن سيده، يعتذر عما قال، اعتذارًا لطيفًا، حيث يقول[١]:

«ولست أقول شيئا من ذلك، بَرمًا بالمقدور، إنما هى أنّة عليل، ونفثه مصدور! أو ليس من كانت هذه حاله: جديرًا أن تلحق ذهنه الكهامة[٢]، وتكلل نفسه السآمة».

ثم يقارن بين حاله، وحال أمثاله من العلماء القدماء، قائلا[١]:

«ولو تأملت ما كان عليه القدماء- من أهل اللغة والنحو أصحابى- من الثروة، والعزة، وأنواع الجدة: لرأيت أخابير[٣]! وإن ظنه أهل بلدنا- لنكادتهم- أساطير»!

ثم نجده- بعد ذلك- يذكر الأيادى السخية، التى جاد بها عليه الموفق (أبو الجيش مجاهد العامرى) وابنه: إقبال الدولة.

إلا أنى أذهب إلى أن ذلك كان من قبيل المراءاة، وليس من قبيل الحقائق، وإلا لما قال ما قاله قبل ذلك، من مر الشكوى!

وعلى الرغم من سوء حاله فى دانية، وعدم رضاه بقَدَره فيها: إلا أنها كانت- على ما أعتقد- أفضل من حاله فى مرسيه.

فهو- فى دانية- قد تفرغ للتأليف، بعد تأمين وسيلة معاشه إلى حد ما، واستطاع- فى ظل هذه الظروف-: أن يُخرج إلى الوجود، كتابى: المحكم والمخصص[٤]، وغيرهما، على الرغم من القلق الذى كان يظلل حياته، وخاصة وفاة أميره الأثير: مجاهد العامرى، وتولّى ابنه- إقبال الدولة- ناصية الحكم.

فقد حدثت بينهما جفوة، فرّ ابن سيده- على إثرها- إلى بعض البلاد

١- مقدمة المحكم: ١/ ١٧.

٢- أى: الفتور والعىّ.

٣- أى: أخبارا، وقصصا كثيرة.

٤- انظر: الحركة اللغوية فى الأندلس: ص ٣٥٦.

المجاورة، وبقى بها مدة، لكن العيش فيها لم يهنأ له- على ما يبدو- إذ حنَّ للعودة إلى دانية.

وقد وجد أنه لا سبيل لتلك العودة إلا باستعطاف ولى الأمر بها- إقبال الدولة- وقد تم ذلك بقصيدة طويلة، مطلعها:

ألا هل إلى تقبيل راحتك اليمنى سبيل، فإن الأمن فى ذاك واليُمنا[١].

وعاد إلى دانية مرة أخرى، وواصل حياته بها، **إلى أن وافته منيته بها**- مفلوجا- «عشية يوم الأحد، لأربع بقين من شهر ربيع الآخر، سنة ثمان وخمسين وأربعمائة»[٢]، وقد بلغ نحوا من ستين سنة[٣].

رحمه الله رحمة واسعة، بقدر ما أسدى للعربية من فضل!

شخصية ابن سيده الاجتماعية:

عرفنا- مما سبق- أنه ولد أعمى، وأن هذه العاهة: لم تكن نقمة، بل كانت نعمة؛ إذ جعلته يتمتع بخاصية التركيز، المُعينة على الحفظ السريع لكل ما يسمعه، أو يتلقاه، حتى لقب بالحافظ[٤].

وقد جعلته هذه الخاصية يقبل على علوم عصره، إقبال الإبل العطاش على موارد الماء، فينهل منها، ويعب من نميرها الصافى، حتى بلغ القمة فى: النحو، والعروض، والقوافى، والمنطق، وسائر علوم الجدل، وعلوم اللغة، التى كان- على الرغم من اشتهاره بها-: يعدها أقل بضائعه العلمية، وذلك حيث يقول[٥]:

«إنى أجد علم اللغة أقل بضائعى، وأيسر صنائعى، إذا أضفته إلى ما أنابه،

١- انظر: بغية الملتمس: ص ٤٠٦، إنباه الرواه: ٢/ ٢٢٥، ٢٢٦.

٢- وفيات الأعيان: ٣/ ٣٣٠، وانظر: بغية الملتمس: ص ٤٠٦، الصلة: ٢/ ٣٩٧، معجم الأدباء: ١١/ ٢٣٢، بغية الوعاة: ٢/ ١٤٣.

٣- انظر: المراجع السابقة.

٤- انظر: ص ٢٠٨ من هذا البحث.

٥- مقدمة المحكم: ١/ ١٦.

من علم حقيقى النحو، وحوشىّ العروض، وخفىّ القافية، وتصوير الأشكال المنطقية، والنظر فى سائر العلوم الجدلية، التى يمنعنى من الإخبار بها:

نُبُو طباع أهل الوقت، وما هم عليه من رداءة الأوضاع والمقت»!

ثم نجده يصف نفسه بأنه لا يبارى فى هذه الفنون، حيث يقول[١]:

«أنا الجواد الخوّار العنان، المخترق للميدان، فى غير فن من الفنون، واليقين قاتل لخوالج الظنون».

ونلحظ- مما كتبه فى مقدمة المحكم- أن رسوخ قدمه فى هذه العلوم، لم ينعكس عليه: حِلما، وهدوءا، وأناة، وصبرا، ثم رضا بما رزقه الله إياه، بل انعكس عليه: حدّة فى الحكم على الناس، وإعجابا شديدا بنفسه، يصل إلى حد الغرور! وازدراءاللآخرين، يصل إلى حد التحقير!

وذلك اعتقادا منه: أنهم لم يصلوا إلى مستواه العلمى، وأنهم- لذلك- يحقدون عليه، بسبب سوء طباعهم، ورداءة أوضاعهم!

ويكفى إخباره، بأنه عاش «بين أناس لولا الشكل: لم تقض لهم بالإنسانية، ولولا الحس: ما حكمت عليهم بالحيوانية»[٢].

وصدق من وصفه بأنه «امرؤ قليل الحلم، سريع الغضب، شتام، هجّاء، لاذع النقد»[٣]!

فقد صب جام غضبه وسخطه- نتيجة سوء حال معيشته- على أبناء عصره، ثم تجاوزهم إلى مشاهير أئمة اللغة القدامى، حيث تتبع زلاتهم- فى النحو والتصريف- فى ثنايا المخصص، وفى مقدمة المحكم، وشن عليهم حملة شعراء، وفى لهجة قاسية[٤].

١- مقدمة المحكم: ١/ ١٦.

٢- المرجع السابق- نفسه.

٣- الحركة اللغوية فى الأندلس: ص ٣٥٥.

٤- انظر: المخصص: دراسة- دليل- محمد الطالبى: ص ٨ ط المط العصرية بتونس ١٩٥٦م.

نقـده اللاذع لعلمـاء العـربية القـدامى!!

وإن شئت فاقرأ مقالته- فى مقام نقده لابن السكيت (ت ٢٤٤ هـ) حين قال[١]: «وأى شىء أذهب لزين، وأجلب لعَبَر[٢] عين: من معادلته- فى كتابه الموسوم بالإصلاح (إصلاح المنطق)-: الرَّيْم، الذى هو: القبر والفضل: بالرِّيم الذى هو الظبى؟ ظن التخفيف فيه وضعا».

يريد أنه ساوى بين الرَّيْم- بمعنى القبر، والياء فيه أصل- والرِّيم بمعنى الظبى، والياء فيه منقلبة عن الهمزة، فذكرهما معا:

ثم انظر نقده أبا عبيد (ت ٢٢٤ هـ) حيث قال[٣]: «وأى شىء أدل على ضعف المُنَّة، وسخافة الجُنة، من قول أبى عبيد القاسم بن سلام- فى كتابه الموسوم بالمصنف-: العفرية مثال فِعلله، فجعله أصلا، والياء لا تكون أصلا فى بنات الأربعة»!

ثم تأمل قسوته وتجريحه لابن الأعرابى (ت ٢٣١ هـ) حين قال[٤]: «وهل أدل على قلة التفصيل، والبعد عن التحصيل، والجهل بالتنتيج والتلقيح، وجودة الانتقاد والتنقيح، من قول أبى عبد الله بن الأعرابى، فى كتابه الموسوم بالنوادر:

العدو: يكون للذكر والأنثى بغير هاء، والجمع: أعداء، وأعاد، وعُداة، وعِدًى، وعُدًى. فأوْهم أن هذا كله جمع لشىء واحد.... الخ.

ثم استمع إليه مستعليا على أهل اللغة وجُماعها، ثم على أهل عصره، حيث يقول[٥]:

«وأما ما فى كتاب الإصلاح[٦]، والألفاظ[٧]، وكتب ابن الأعرابى،

١- مقدمة المحكم: ١/ ٤.
٢- دموع العين.
٣- مقدمة المحكم: ١/ ٤.
٤- السابق: ص٥.
٥- السابق: ص٨.
٦- إصلاح المنطق، لابن السكيت.
٧- تهذيب الألفاظ، لابن السكيت.

وأبى زيد (ت ٢١٥ هـ) وأبى عبيدة (ت ٢٠٩ هـ) والأصمعى (ت ٢١٦ هـ) وغيرهم، من أمثال هذا الذى وصفت[١]: فأكثر من أن يحصى مدده أو يحصى عدده! وهل يقوم بانتقاء هذا النوع إلا مثلى! من ذوى الحفظ الجليل، والاضطلاع بعلم النحو، وصناعة التحليل؟!

وإن كنت بين حثالة جهلت فضلى، وأساء الدهر جمعهم بمثلى! وهل ينفع اليائس من الحياة بكاه؟!

اعتذاره عن تقصيره!

وبالرغم من هذا التعالى الواضح، وذاك التطاول الفاضح: فقد اضطر إلى أن يحنى راسه، معتذرًا عن الأخطاء التى ظهرت فى مؤلفاته!

ويبدو أن بعض المعاصرين له، قد غاظهم هجومه هذا، على من غبر وحضر، فتتبعه، وعد عليه بعض سقطاته، مما اضطره إلى الدفاع عن نفسه، والاعتذار عن أخطائه، **متعللا مرة: بأن تآليفه كثيرة**، ومن كان كذلك: كان عرضه للسقطات:

«ولا أنكر- فى كل ذلك- أن تختل قضية بين خمسة آلاف، أو حرف بين حروف عديدة، أضعاف»[٢]!

ومعتذرًا- مرة أخرى- بأن بضاعته فى علم اللغة: أقل من بضائعه فى علوم النحو والعروض، والمنطق، حيث يقول[٢]:

«وذلك أنى أجد علم اللغة: أقل بضائعى، وأيسر صنائعى، إذا أضفته إلى ما أنابه من علم حقيق النحو، وحوشىّ العروض»... الخ

ثم ضاربا المثل بمن أخطأوا، مع أنهم مجاورون لأهل البادية:

١- أى: نقدت.

٢- مقدمة المحكم: ١/ ١٦.

«وإذا كان المنفردون لكتاب اللغة وتكميشها، واحتطابها وتقميشها[١]: كأبى عبيدة، والأصمعى: قد غلطوا فى بعض ما دونوا، فأنا أحرى بذلك!

لأن هؤلاء: جاوروا أهل البادية، وأطالوا احتلاب الإبل النادية[٢]، مع ما كانوا يتحفون به فصحاء الأعاريب، من ضروب الأعاجيب، ويستعملونه معهم، من الخداع؛ جريا إلى استدامة الإمتاع!

فكيف بى: ولم آلف إلا شطوط الأنهار، ولا أصخت إلا إلى ناحية التيار»[٣]؟!

* * *

١- يعنى: كتابة اللغة، وجمعها من متفرق مصادرها.
٢- أى: النادَّة، أو الشاردة.
٣- مقدمة المحكم: ١/ ١٦.

نتاج ابن سيده

أولا: نتاجه الشعرى:

أشار بعض مؤرخيه، إلى أن له فى الشعر حظا وتصرفا[١].

وذكر بعضهم الآخر: أن له شعرا جيدا[٢]

ولكن هذا الشعر، لم يبق منه- أمام أعيننا- إلا قصيدته التى استعطف بها إقبال الدولة، وإلا أرجوزته[٣]، ثم أبيات ثلاثة، بقيت من قصيدة فى المدح والتكسب[٤]

أما قصيدته الاستعطافية: فهى قصيدة طويلة، يقول فى مطلعها[٥]:

أَلَا هَلْ إلى تقبيل راحتك اليُمنَى ... سبيلُ، فإن الأَمْن فى ذاكَ واليُمْنا
ضَحِيتُ فهل فى بَرْدِ ظِلّك نَومة ... لذِى كَبِد حَرَّى، وذى مُقْلَةٍ وَسْنَا[٧]
ونِضْوِ زَمَانٍ طَلَّحتْه ظُبَاتُه ... فلا غارِبًا أبقيْنَ مِنه وَلَا مَتْنَا[٨]
غَرِيبُ نَأَى أَهْلُوه عَنْه وَشَفَّه[٩] ... هَوَاهُمْ، فأمسَى لا يَقَرُّ وَلَا يَهْنَا
فَيَا مَلِكَ الأَمْلاكِ إِنِّى مُحَلَّأٌ ... عَنِ الوِرْدِ، لَا عَنْه أُذادَ، وَلَا أُدنى

القصيدة.....

وتلحظ معى: أن هذه القصيدة، مرصوصة رصا، وخالية من العاطفة الصادقة، ويبدو التكلف فيها واضحا، وليست هناك قصائد أخرى، تسندها،

١- انظر: وفيات الأعيان: ٣/ ٣٣٠، بغية الملتمس: ص ٤٠٥، الصلة: ٢/ ٣٩٧.
٢- إنباه الرواه: ٢/ ٢٢٥.
٣- الحركة اللغوية فى الأندلس: ص ٣٥٦.
٤- انظر: ابن سيده.. آثاره وجهوده اللغوية: ص ٤٢، ٤٣.
٥- معجم الأدباء: ١١/ ٢٣٥.
٦- أى: برزت إلى الشمس.
٧- أصابها السهاء والأرق.
٨- النضو: الهزيل، طلّحتْه: أعيته، الظُّبة: حد السيف، الغارب: الكاهل.
٩- أهزله وأضعفه.

وتعضدها، وتجعلنا نكون فكرة كاملة، وصحيحة عن شاعريته!

حتى الأبيات الثلاثة الأخرى، التى وعاها الزمن؛ فإنها ليست أفضل حالا من قصيدته السالفة الذكر!

وإن شئت فانظر إلى هذه الأبيات، التى يقول فيها[١]:

لا تَضْجَرَنَّ فما سِواك مُؤَمَّل ... ولديك يَحْسُنُ للكرام تَذَلُّل
وإذا السحاب أتت بواصلِ درِّها ... فمن الذى فى الرِّى عنه يُسْأَلُ
أنت الذى عوَّدتنا طلب المُنَى ... لازلت تَعلم فى العُلا ما يُجهل

وأما أرجوزته: فهى منظومة طويلة، يقول فيها[٢]:

قرأت بالوحْيِ وسِنِّى أربعُ ... وقَبْل سِتٌّ تَمَّ عِندى أَجْمَعُ
حتى إذا حلَّيْتُ بالتَّنْزِيلِ ... نَظَرتُ فِى حقائِق التأْوِيلِ
ولمْ أَدَعْ لِعَالِم تَحْبِيرًا ... إلَا وقد ظَلْتُ بِهَا خَبِيرًا
فَلَا ابن عبَّاس أَضَعْتُ وضْعَه ... وَلَا ابْنِ سَلَّام تَرَكْتُ جَمْعَه
ولا كتاب ابن حميد عَبْدِ ... إلَّا أَذْخَرْت كُل ذَلِكَ عِنْدِى
حَتَّى إِذَا استضلعت بالحِجَاجِ ... قَرَأْتُ كُتَب كلِّ حَبرٍ نَاجِ

المنظومة.....

وهذه الأرجوزة- كما ترى- لا تمت إلى الشعر بسبب، بل هى نظم بيَّن فيه كيف تعلَّم؟ وعلى من قرأ؟ وماذا قرأ؟

وهى تشبه- إلى حد كبير- ألفية ابن مالك، ولذلك لا يصح أن نعدَّها من الشعر.

وإذا وضعنا هذه إلى جوار ما سبقها: لم نستطع أن نحكم له بالشاعرية، وإنما نستطيع أن نقول: إنه كان ناظمًا جيدًا، استغل مهارته فى فن العروض، وحفظه

١- انظر: ابن سيده.. آثاره وجهوده اللغوية: ص ٤٢، ٤٣.
٢- الحركة اللغوية فى الأندلس: ص ٣٥٩.

لألفاظ اللغة، فنظم بعض القصائد التى مات أكثرها، ولم يبق منها إلا هذا التراث اليسير! الذى «لا يرقى بابن سيده، إلى مصاف الشعراء المتقدمين»[١].

وأعتقد أنه لم يشغل نفسه بالشعر طويلا، فمجاهدة الحياة، ومغالبة الظروف الصعبة، التى كانت تحيط به، بالإضافة إلى اتجاهاته العلمية واللغوية: كل ذلك لم يدع له الفرصة، لكى يقول شعرا عاطفيا رائقا، يهمس به فى أذن الزمان، فتردده الألسن، ويتناقله الرواه!!

ثانيا: نتاجه العلمى:

أما نتاجه العلمى: فهو وفير، وكثير، وغزير.

وذلك لأنه: «كان- مع إتقانه لعلم الأدب والعربية- متوافرا على علوم الحكمة..... ولم يكن فى زمنه: أعلم منه بالنحو، واللغة، والأشعار، وأيام العرب، وما يتعلق بعلومها»[٢].

وبقدر ما حصل من علوم العربية، وحفظ، بقدر ما أعطى وألَّف.

وأهم تآليفه- كما ذكر مؤرخوه- تنحصر فيما يلى:

أولا: كتب عاشت، وقاومت تصاريف الزمان، وهى:

١- المحكم والمحيط الأعظم فى اللغة

وقد نسبه إليه، كل من أحصى كتبه من المترجمين له[٣].

وقال عنه ابن خلكان وابن العماد[٤]: «هو كتاب كبير جامع، مشتمل على أنواع اللغة».

١- ابن سيده... آثاره وجهوده فى اللغة: ص ٤٤.

٢- معجم الأدباء: ١١/ ٢٣٢.

٣- الصلة: ٢/ ٣٩٦، بغية الوعاة: ٢/ ١٤٣، مرآة الجنان: ٣/ ٨٣، تاريخ الأدب العربى لبروكلمان: ٥/ ٣٥٢.

٤- الوفيات: ٣/ ٣٣٠، الشذرات: ٣/ ٣٠٦.

وقال عنه ياقوت[١]: إنه مكون من اثنى عشر مجلدا.

ونوه به القفطى، قائلا[٢]: إنه «يقارب عشرين مجلدًا[٣]، لم ير مثله فى فنه، ولا يعرف قدره إلا من وقف عليه..... لو حلف الحالف أنه لم يصنف مثله لم يحنث».

وقرظه الدكتور طه حسين قائلا[٤]: «هذا كتاب يعتبر أصلًا خطيرًا، من أصول المعجمات العربية، فصاحبه قد جمع كل ما سبق إليه الذين وضعوا المعجمات، ودرسه، وحقق ما يحتاج إلى تحقيق، وصحح منه ما لم يكن بد من تصحيحه، وأهدى إلى العالم العربى كتابه هذا، الضخم، مرجعا أساسيا بألفاظ اللغة العربية.

ودقته فى البحث، وحُسن تجليته للمشكلات: يعرفه كل من رجع إلى المخصص، الذى نشر فى مصر، والذى لا يقل خطورة عن هذا الكتاب».

وقد بدئ فى نشره بعناية معهد المخطوطات العربية، بتحقيق ثلة من أعلام التحقيق، وصدرت منه سبعة أجزاء، عن مطبعة الحلبى بالقاهرة.

وأول هذه الأجزاء: صدر بتحقيق: مصطفى السقا، ود/ حسين نصار، مع تصدير للدكتور طه حسين، ومقدمة شاملة، بقلم المحققين، وكان ذلك سنة ١٩٥٨ م[٥].

٢- المخصص فى اللغة

نسبه إلى ابن سيده: كل من أحصى كتبه، ممن ترجموا له[٦].

١- معجم الأدباء: ١١/ ٢٣٢.
٢- إنباه الرواه: ٢/ ٢٢٥.
٣- يبدو أن النسخة التى رآها القفطى تختلف حجما عن النسخة التى رآها ياقوت الحموى.
٤- من تصديره للمحكم المطبوع: ١/ ٣.
٥- وانظر: معجم المعاجم- أحمد الشرقاوى إقبال: ص ٢٠٣ نشر: دار الغرب الإسلامى ببيروت- ط١ سنة ١٩٨٧م وإن كان قد ذكر أنه قد صدر من المحكم ستة أجزاء فقط.
٦- انظر: الصلة: ٢/ ٣٩٦، مرآة الجنان: ٣/ ٨٣، وفيات الأعيان: ٣/ ٣٣٠، شذرات الذهب: ٣/ ٣٠٦.

وقال عنه ياقوت[١]: «مرتب على الأبواب كغريب المصنف».

وقيل عنه- فى معجم المعاجم[٢]:- «هو أجود معاجم الموضوعات تصنيفا، وأوعبها مادة».

وقال عنه د/ طه حسين- فى مجال تصديره للمحكم[٣]-: «والذين ينظرون فى المعجمات، التى ألفت بعد هذا الكتاب: يستطيعون أن يلاحظوا، أن أصحاب هذه المعجمات يرجعون دائما إلى كتاب المحكم، وكتاب المخصص، وربما أخذوا منهما دون الإشارة إليهما، وربما ذكروا اسم المؤلف، ولم يذكروا اسم الكتاب، الذى رجعوا إليه من هذين المعجمين»

وقد قاومت الزمن- من نسخ المخصص- مخطوطتان، تتكون كل منهما من ١٧ سفرا، إحداهما: مخطوطة القاهرة أول، تحت رقم ٤/ ١٨٧ وخطها مغربى عتيق.

والأخرى: مخطوطة القاهرة ثان، تحت رقم ٢/ ٣٦ وهى منقولة عن الأولى بخطوط مختلفة.

كما توجد بقايا نسخة من المخصص، فى مكتبة الإسكوريال بأسبانيا، تحت رقم: ثان/ ٥٧٥، وهذه البقايا عبارة عن السفرين: السادس عشر والسابع عشر[٤].

وأشار جرجى زيدان: إلى أنه توجد منه أجزاء خطية، بمكتبتى أكسفورد والإسكوريال، ولكنه لم يحدثنا عنها بالتفصيل[٥].

وقد طبع المخصص- لأول مرة- بالمطبعة الأميرية ببولاق بالقاهرة، بدءا من سنة ١٣١٦ هـ وانتهاءً بسنة ١٣٢١ هـ.

١- معجم الأدباء: ١١/ ٢٣٢.
٢- ص ١٤٤.
٣- المحكم: ١/ ٣.
٤- انظر: تاريخ الأدب العربى- بروكلمان: ٥/ ٣٥٢، معجم المعاجم: ١٥٤.
٥- انظر: تاريخ آداب اللغة العربية: ٢/ ٣١٤.

وقام على طبعه، ونشره- لتيسير تناوله، وتعميم نفعه- جمعية خيرية من فضلاء المصريين وسراتهم، وفى مقدمتهم[1]:

١- الشيخ محمد عبده- مفتى الديار المصرية آنئذ.

٢- حسن باشا عاصم- رئيس ديوان الخديوى.

٣- عبد الخالق بك ثروت- عضو لجنة المراقبة القضائية.

٤- محمد بك النجارى- قاض بالمحكمة المختلطة، بالأسكندرية، والذى كان صاحب السبق فى تحقيق هذا المشروع الجليل، حيث بذل همته فى استكتاب هذا الكتاب من نسخة عتيقة مغربية، بالكتبخانة المصرية، وبعد كتابة نسخة منها: وكَل تصحيحها إلى الشيخ محمد محمود التركزى الشنقيطى، وكان معه- فى المقابلة على الأصل- الشيخ عبد الغنى محمود، فبذل فى تصحيحها- على الأصل- من الاعتناء، ما استوجب به وافر الثناء.

وكانت ترسل كل ملزمة- بعد الفراغ من تصحيحها، وقبل طبعها- إلى الشيخ محمد عبده؛ ليراجعها مرة أخرى.

ثم أسند الشيخ محمد عبده هذه المهمة إلى الأستاذ الشنقيطى، فقام بما أسند إليه، مضطلعا، حتى انتهى الكتاب.

ثم قدمت للطبع، فبذل فى تصحيح المطبوعة غاية المجهود.

وكانت للأستاذ الشنقيطى تعليقات وتصحيحات على الكتاب، سجلت على حواشيه، فجاء الكتاب- بتوفيق الله- على ما يرام، غاية فى الصحة، ونهاية فى الإحكام.

لكن المخصص يحتاج إلى تحقيق عصرى جديد، تجمع فيه كل نسخه الموجودة فى مكتبات العالم، لتخرج منه نسخة محققة تحقيقا علميا، وخالية- ما أمكن- من السقط والبياض، المنتشرين فى مطبوعة الأميرية.

١- انظر: المخصص: ١٧/ ١٦٨ ط الأميرية ببولاق.

وهناك ملحوظة على النسخ المتداولة حاليا من المطبوعة، وهى: أن مصورها- المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر ببيروت- لم يشر أية إشارة، لأصحاب الفضل- بعد الله- فى إبراز وإخراج هذا العمل الضخم إلى الوجود.

وقد كان من دواعى الأمانة العلمية: أن تصور صفحة الغلاف القديم كما هى، مع تذييلها بمن قام بالتصوير، وإعادة النشر مرة أخرى.

دراسات حول المخصص:

قامت- حول المخصص- دراسات مطبوعة، أهمها ما يلى:

ا- دراسة قام بها الأستاذ محمد الطالبى، التونسى، تحت إشراف المستشرق الفرنسى: بلا شير رجيس.

وتم نشرها فى كتاب يحمل عنوان: المخصص لابن سيده: دراسة- دليل، وطبع هذا الكتاب بالمطبعة العصرية بتونس سنة ١٩٥٦م.

ب- دراسة قام بها المستشرق الأسبانى كابا نبلاس رود ريجيث، ونشرها فى مجلة: «منوعات من الدراسات العربية والعبرية» التى أصدرتها جامعة غرناطة فى أكتوبر ١٩٦١م، وذلك تحت عنوان: «المخصص لابن سيده المرسى- أول معجم موضوعى فى الغرب الإسلامى».

وقد أحضرت هذا البحث من أسبانيا، واطلعت عليه، بعد ترجمة جزء منه.

ج- دراسة قام بها الدكتور حسين نصار، فى كتابه: المعجم العربى: نشاته وتطوره، الصادر سنة ١٩٥٦م، وتعرض فيها لابن سيدة، فى أماكن عدة، درس فيها المخصص والمحكم.

د- دراسة موجزة، قام بها الأستاذ ألبير حبيب مطلق، ضمن كتابه عن «الحركة اللغوية بالأندلس، منذ الفتح العربى، وحتى نهاية عصر ملوك الطوائف» والذى نشرته: المكتبة العصرية بصيدا وبيروت ١٩٦٧م.

وقد أفدت من هذه الدراسات فائدة كبيرة.

هـ- رسالة دكتوراة، فى كلية اللغة العربية بالقاهرة، عن ابن سيده وجهوده النحويه، نال بها صاحبها درجة الدكتوراه، إلا أنى لم أتمكن من الإطلاع عليها.

و- دراسة قام بها الدكتور عبد الكريم النعيمى تحت عنوان: ابن سيده... آثاره وجهوده فى اللغة، ونشرها بالعراق سنة ١٩٨٤هـ ولكنى لم أرها إلا حين مثول هذا البحث للطبع، ولذلك لم آخذ منها إلا جزيئات يسيرة، وكنت أتمنى لو جاءتنى منذ البداية.

٣- كتاب: شرح المشكل من ديوان المتنبى:

نشر سنة ١٩٧٦ بتحقيق الأستاذ مصطفى السقا، والدكتور حامد عبد المجيد، وقامت بنشره: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

وهذا الكتاب لم يعالج فيه ابن سيده، كل قصيدة بجميع أبياتها، وإنما تناول الأبيات التى رأى أنها تحتوى على أمور جديرة بالتعليق عليها من الناحية: النحوية، أو اللغوية، أو العروضية، أو المجازية، أو المنطقية[١].

ثانيا: كتب طواها الزمن، وبقيت أسماؤها- أو إشارات إليها، فى ترجمات من ترجموا لابن سيده، أو فى تقديمه للمحكم، وهى ما يأتى:

١- شاذ اللغة:

نسبه إليه ياقوت الحموى، وأفاد أنه مكون من خمس مجلدات[٢].

٢- شرح إصلاح المنطق

نسبه إليه السيوطى[٣]، وياقوت[٤]، وسماه باسم: الغويص فى إصلاح

١- انظر: مقدمة محققى المحكم: ١/ ٨.
٢- انظر: معجم الأدباء: ١١/ ٢٣٣.
٣- بغية الوعاة: ٢/ ١٤٣.
٤- معجم الأدباء: ١١/ ٢٣٣.

المنطق. كما ألمح إليه ابن سيده، فى مقدمة المحكم، حين أورد أمثلة من خطأ ابن السكيت فى كتابه «إصلاح المنطق» ثم قال عقبها: «وقد أفردت فى ذلك كتابا»[١].

٣- كتاب التذكير والتأنيث

أشار إليه ابن سيده فى مقدمة المحكم حين قال[٢]:

«فأما ما أتركه من الإشعار بالتذكير والتأنيث: فإنما ذلك لأنى أفردت له كتابا لم يوضع فى معناه ما يوازيه، فضلا عما يساويه، وكذلك المقصور والممدود».

٤- المقصور والممدود

وقد أشار إليه ابن سيده- أيضا- فى مقدمة المحكم، وهو فى ذيل الفقرة السابقة، حين قال: «وكذلك المقصور والممدود».

٥- الأنيق فى شرح الحماسة

نسبه إليه ياقوت[٣]، وقال إنه مكون من عشرة أسفار.

كما نسبه إليه اليافعى[٤]، ولكنه قال: إنه مكون من ستة مجلدات.

٦- شرح كتاب الأخفش

نسبه إليه السيوطى[٥] وإن كان بعض الباحثين يشككون فى نسبته إليه، ويشككون كذلك فى نسبة «كتاب العالم والمتعلم»- الذى سيذكر- إليه[٦]، وقطع بعضهم[٧] بأن هذين الكتابين من تأليف: أحمد بن أبان ابن سيّد (أو:

١- مقدمة المحكم: ١/ ٤.
٢- ص ١٤.
٣- معجم الأدباء: ١١/ ٢٣٢.
٤- مرآة الجنان: ٣/ ٨٣.
٥- بغية الوعاة: ٢/ ١٤٣.
٦- انظر: الحركة اللغوية فى الأندلس: ص ٣٦٠.
٧- انظر: ابن سيده... آثاره وجهوده اللغوية: ص ٨٠، ٨١.

السِّيد) اللغوى الأندلسى المعروف (ت ٣٨٢ هـ) ثم بين أن سبب نسبة هذه الكتب إلى ابن سيده: هو التشابه بين اسمه واسم: ابن السِّيد.

وهذا ما أذهب إليه، لأن الأدلة على ذلك كثيرة[١].

٧- كتاب العالم والمتعلم على المسألة والجواب

نسبه إليه ياقوت الحموى[٢].

٨- كتاب الوافى فى علم القوافى

أشار إليه ابن سيده، فى مقدمة المحكم، حين نقد أبا عبيد، فى كتابه «الغريب المصنف» وخاصة فى باب «عيوب الشعر وطوائفه وقوافيه» وقال عنه: إنه «ما كاد يوفق فى قضيه، ولا يُسَد فيها إلى طريق سوية، وقد أبنت ذلك عليه كتابى، الموسوم بالوافى فى علم القوافى[٣]».

٩- كتاب كبير مبسوط فى المنطق

نسبه إليه بعض أصحاب الطبقات، ولم يذكروا له عنوانا[٤].

وقد نسب إليه ياقوت «كتاب العالم فى اللغة على الأجناس» ووصفه بأنه «فى غاية الإيعاب [يبلغ] نحو مائة سفر، بدأ بالفلك وختم بالذرة»[٥].

وحقيقة أمر هذا الكتاب: أنه من تأليف أحمد بن أبان بن سيد، وقد نسبه إليه ياقوت نفسه، حين ترجم له[٦]، كما نسبه إليه القفطى[٧]، والسيوطى[٨].

١- انظر: ابن سيده... آثاره وجهوده اللغوية: ص ٨٠، ٨١.
٢- معجم الأدباء: ١١/ ٢٣٢، ٢٣٣.
٣- المحكم: ١/ ٤.
٤- انظر: مقدمة محققى المحكم: ١/ ٧.
٥- معجم الأدباء: ١١/ ٢٣٢.
٦- انظر: معجم الأدباء: ٢/ ٢٠٣.
٧- انظر: إنباه الرواه: ١/ ٦٦.
٨- انظر: بغية الوعاه: ١: ١٢٦.

المخصص... وأثر شخصية ابن سيده فى تأليفه

أولا: المخصص على طريق معاجم الموضوعات

وصف أحد الباحثين المخصص، فقال[١]:

«هو أجود معاجم الموضوعات تصنيفا، وأوعبها مادة».

وقال عنه ثان[٢]: «هو أوفى كتاب فى بابه، اجتمعت فيه الألفاظ المتشابهة، والمتقاربة فى معانيها، أو المتفرعة بعضها عن بعض، فى باب واحد».

وقال عنه آخر[٣]: «هو أوفى وأشمل معجم من معاجم المعانى، فى تاريخ اللغة العربية».

ولما كانت للمخصص هذه المنزلة الرفيعة، من منازل معاجم الموضوعات، فقد بات لزاما علينا أن نطل إطلالة سريعة، على حركة معاجم الموضوعات العربية، السابقة على المخصص، وذلك: حتى تتصل الحلقات ببعضها- فى ذهن القارىء- وحتى تظهر لنا الأرضية الثابتة، التى وقف عليها ابن سيده، حين ألف مخصصه.

والباحث المدقق، يرى أن معاجم الموضوعات، مرت- أثناء رحلة تطورها- بمراحل ثلاث[٤]:

المرحلة الأولى: الرسائل اللغوية:

وهى التى كانت تجمع فيها كلمات العربية وألفاظها، دون ترتيب معين، «فالعالم يرحل إلى البادية، يسمع كلمة فى المطر، ويسمع كلمة فى اسم

١- معجم المعاجم: ص ١٤٤.

٢- جرجى زيدان- تاريخ آداب اللغة العربية: ٢/ ٣١٤.

٣- د. أحمد مختار عمر- البحث اللغوى عند العرب: ص ٢٥٤ نشر: عالم الكتب بالقاهرة ط ٤ سنة ١٩٨٢م.

٤- أحمد أمين- ضحى الإسلام: ٢/ ٢٦٣ ط ٨ مكتبة النهضة المصرية.

السيف، وأخرى فى الزرع والنبات، وغيرهما فى وصف الفتى أو الشيخ، إلى غير ذلك، فيدون ذلك كله حسبما سمع، من غير ترتيب، إلا ترتيب السماع»[١].

وقد يرحل البدوى إلى الحضر؛ ليسمع منه العلماء، ويدونوا ما سمعوه عنه.

ويمثل تلك المرحلة: كتب النوادر، التى ابتدأ التأليف فيها: «فى القرن الثانى من الهجرة، أى: فى الوقت نفسه، الذى نهض فيه رواة اللغة، وعلماؤها؛ لتدوين اللغة العربية، ونشطوا لجمعها فى الكتب»[٢].

وأول من بدأ التأليف- فى هذا النوع من كتب اللغة- أبو عمرو بن العلاء، التيمى، البصرى (ت ١٥٤ هـ).

ثم كثر التأليف فى النوادر، على مر الأيام، واستمر فى زيادة مطردة، طوال قرن من الزمان، أى إلى أواسط القرن الثالث الهجرى.

وبدأ يخبو- بعد ذلك- رويدا، رويدا، إلى أن ضعف جدا، فى القرن الرابع الهجرى، حتى إنه لا يكاد يوجد إلا القليل من علماء هذا القرن، الذين ألفوا فى النوادر.

وكان ختامهم: صاعد بن الحسن الأندلسى (ت ٤١٠ هـ).

وبين أبى العلاء، وصاعد- هذا-: ما يربو على ثلاثة وأربعين عالما، ألَّفوا فى النوادر، أو الرسائل اللغوية[٣].

وخير من يمثل هؤلاء العلماء الرواه: أبو زيد: سعيد بن ثابت الأنصارى، توفى بالبصرة ٢١٥هـ. بعد أن عاش عمرا طويلا، قارب المائة[٤].

١- أحمد أمين- ضحى الإسلام: ٢/ ٢٦٣.

٢- د. عزه حسن- مقدمة كتاب: النوادر، لأبى مسحل الأعرابى: ص ٢٤ مطبوعات مجمع اللغة العربية، بدمشق سنة ١٩٦١م.

٣- انظر: مقدمة كتاب النوادر، لأبى مسحل: ص ٢٤- ٣٠.

٤- انظر: وفيات الأعيان- لابن خلكان- بتحقيق محيى الدين: ٢/ ١٢٢ نشر النهضة المصرية.

«وكان أنحى من أبى عبيدة (ت ٢٠٩ هـ) والأصمعى (ت ٢١٦ هـ) وأغزر فى اللغات منهما، وله كتب كثيرة[١]، ونوادر فى اللغة مشهورة»[٢]

ومن أشهر كتبه: كتاب: النوادر فى اللغة[٣].

المرحلة الثانية: الرسائل ذات الموضوع الواحد

وفى هذه المرحلة: كانت تجمع «الكلمات المتعلقة بموضوع واحد، فى موضع واحد.... والذى دعا إلى هذا فى اللغة- على ما يظهر-: أنهم رأوا كلمات متقاربة المعنى، فأرادوا تحديد معانيها، فدعاهم ذلك، إلى جمعها فى موضع واحد»[٤].

وقد ألفت- فى هذا: رسائل كثيرة وغفيرة، ومن أشهرها:

١- كتاب الدارات، للأصمعى (ت ٢١٦ هـ).

٢- كتاب النَّبات والشجر، للأصمعى.

٣- كتاب النخل، للأصمعى.

٤- كتاب المطر، لأبى زيد الأنصارى (ت ٢١٥ هـ).

٥- كتاب الرحل والمنزل، لأبى عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ).

المرحلة الثالثة: الكتب ذات الموضوعات المتعددة.

وقد سميت بذلك: لأنها جمعت الموضوعات السابقة الذكر- وغيرها- تحت اجنحتها.

وقد سميت هذه الكتب- أيضا- كتب الصفات؛ لأنها تجمع الصفات

١- انظر هذه الكتب، التى بلغت ١٩ كتابا: فى وفيات الأعيان: ٢/ ١٢٢.

٢- طبقات اللغويين والنحويين- للزبيدى- بتحقيق محمد أبو الفضل: ص ١٦٥ ط٢- نشر دار المعارف بمصر.

٣- نشر بتصحيح: سعيد الخورى الشرتونى- طبع المط الكاثوليكية ببيروت.

٤- أحمد أمين- ضحى الإسلام: ٢/ ٢٦٤.

المتفرقة، مثل: صفة الخيل، وصفة الإبل، وصفة المطر، وغيرها، فى كتاب واحد.

كما سميت- أيضا-: كتب الغريب المصنف؛ لأنها جعلت الغريب أصنافا، كل صنف يعنى بموضوع واحد، ثم جمعت هذه الأصناف كلها فى كتاب واحد.

ومن أوائل من ألفوا، فى هذا المجال:

١- أبو عمرو الشيبانى (إسحق بن مرار- ت ٢٠٦ هـ) فقد كان له كتاب (غريب المصنف) الذى رواه عنه ولده: عمرو بن أبى عمرو، ولذلك نسب إليه فى بعض المصادر[١].

وهذا الكتاب لم يصل إلينا.

٢- أبو عبيد القاسم بن سلام بن مسكين بن زيد (توفى بمكة المكرمة سنة ٢٢٤ هـ) صاحب كتاب «الغريب المصنف» الذى قال عنه صاحبه[٢]: «مكثت فى تصنيف هذا الكتاب أربعين سنة، أتلقف ما فيه من أفواه الرجال، فإذا سمعت حرفا- عرفت له موقعا فى الكتاب- بت تلك الليلة فرحا».

وهذا الكتاب يعد أقدم ما وصل إلينا من الكتب، ذات الموضوعات المتعددة، وتوجد نسخة منه بمخطوطات دار الكتب المصرية، تحت رقم ١٢١ لغة، وهى مصورة عن النسخة الأصلية الموجودة بمكتبة عارف حكمت، بالمدينة المنورة.

كما توجد نسخة ثانية بمكتبة الإسكوريال بأسبانيا، ونسخة ثالثة بمكتبة مدرسة محمودية بالمدينة المنورة.

وهذه النسخ الثلاث: توجد لها مصورات، بمكتبة الجامعة الإسلامية، بالمدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

١- انظر: الفهرست للنديم- بتحقيق: رضا تجدد: ص ٧٤، ٧٥ ط طهران.

٢- تهذيب اللغة- للأزهرى- بتحقيق عبد السلام هارون: ١/ ٢٠ دار القومية العربية للطباعة ١٩٦٤- هذا: وقد سماه الأزهرى: الغريب المؤلف.

وقد أشار الطالبى[1] إلى أنه توجد نسخة أخرى- لهذا الكتاب- باسطنبول تحت رقم ٤٧٠٦، ونسخة أخرى بتونس (أمحديه/ ٣٩٣٩) نسخت سنة ٤٠٠ هـ.

وفى الآونة الأخيرة: قام الدكتور رمضان عبد التواب بالإقدام على تحقيق هذا الكتاب، لكنه لم يصدر منه إلا جزءا واحد- حسب علمى- ولا أدرى: إن كان سيواصل المشوار الصعب، مع هذا الكتاب الضخم، أم لا؟!

ومن خصائص كتاب: الغريب المصنف[*]:

١- أنه جمع أشتاتا من الأبواب، والموضوعات المختلفة.

٢- أن صاحبه: نسب ما جمعه إلى أصحابه من اللغويين الأوائل، وجماع اللغة، من أمثال: الأصمعى (ت ٢١٦ هـ) والكسائى (ت ١٨٩ هـ) وأبو زيد الأنصارى (ت ٢١٥ هـ) وأبى عمرو الشيبانى (ت ٢٠٦ هـ) والفراء (ت ٢٠٧ هـ). وبذلك أصبح الكتاب موثقا، وغاصًا بأسماء رواد جمع اللغة الأوائل.

٣- أن صاحبه استشهد بما تيسر له الاستشهاد به، من صحيح أقوال العرب وأشعارهم.

٤- واهتم بإيراد الغريب من الألفاظ العربية، مع عنايته بتوضيحها، والتعريف بها، بل وحرص على ضبط ما يلتبس ضبطه.

٥- أن صاحبه لم يرتب أبوابه أو ألفاظه، أى ترتيب معجمى، يسهل للقارىء الوصول إلى مبتغاه منه، مما جعل الاستفادة منه عسيرة، ولكن عذره- فى ذلك- أنه لم يقصد منه أن يكون معجم ألفاظ، بل كان قصده منه أن يكون معجم موضوعات.

١- انظر: المخصص- دراسة- دليل: ص ٢٤.

*- انظر- فى هذا، ونماذج من الغريب المصنف- المعاجم العربية موضوعات وألفاظا. د. فوزى الهابط: ص ٦٩، ٧٠ نشر دار الولاء بشبين الكوم.

ويكفى هذا الكتاب- شرفا وفخرا- أنه نقل إلينا صورة دقيقة وأمينة للألفاظ، والمعانى العربية القديمة، تلك التى كان يمكن أن تضيع فى رحلة الزمان، لولا حفظها فى هذا الكتاب، الذى حوى- فى باطنه- كثيرا من الكتب والموضوعات.

وكان خاتمة المطاف- فى تأليف هذا النوع من الكتب ذات الموضوعات المتعددة- هو كتاب: المخصص لابن سيده:

إذ أن هذا الكتاب «توج هذا النوع من الكتب، وسما به إلى القمة»[١] وذلك لأنه: يعد أغزر هذه الكتب مادة، وأغناها بالمفردات اللغوية، بالإضافة إلى ما نثر فيه من المعارف النحوية، والصرفية[٢].

ثانيا: دوافع ابن سيده لتأليف المخصص

كان الدافع الأول له- أن يؤلف المخصص- هو: أنه نظر فيما ألفه القدماء فى اللغة، فوجده: «نشرًا غير ملتئم، ونثرًا غير منتظم»!

ومن مظاهر ذلك- فى رأيه-: أنه لا يوجد كتاب نعلمه، إلا وفيه من الفائدة، ما ليس فى صاحبه.

بالإضافة إلى: أنه لم ير لهم كتابا مشتملا على جُلها، فضلا عن كلها!

أما الدافع الآخر: فهو ما لاحظهُ على من سبقوه فى التأليف، من أنهم «قد حُرموا الارتياض بصناعة الإعراب»، حيث وجدهم- فى تآليفهم-:

لا يبينون ما انقلبت فيه الألف عن الياء، مما انقلبت الواو فيه عن الياء.

ولا يحددون الموضع الذى انقلاب الألف فيه عن الياء، أكثر من انقلابها عن الواو، مع عكس ذلك!

ولا يميزون- مما يخرج على هيئة المقلوب-: ما هو منه مقلوب، وما هو من

١- المعجم العربى- د. نصار: ١/ ٢١١.

٢- المرجع السابق: ص ٢١٢.

ذلك لغتان، وذلك: كجذب وجبذ، ويئس وأيس!

وكذلك: لا ينبهون على ما يسمعونه غير مهموز- مما أصله الهمز- على ما ينبغى أن يعتقد منه تخفيفا قياسيا، وما يعتقد فيه بدلًا سماعيًا!

ولا يفرقون بين القلب والإبدال، ولا بين ما هو جمع يكسر عليه الواحد، وما هو اسم للجمع!

وربما استشهدوا على كلمة من اللغة: بما ليس فيه شيء من تلك الكلمة! كقول أبى عبيد: النبيثة: ما أخرجته من تراب البئر، واستشهاده على ذلك بقول صخر الغيّ:

* لصخر الغى ماذا تستبيث *

وإنما النبيثة: كلمة صحيحة، مؤتلفة من: ن ب ث

وتستبيث: كلمة معتلة، مؤتلفة من: ب و ث، أو: ب ى ث.

إلى غير ذلك من قوانين التصريف، التى- كما يقول:

«جفت أذهانهم عن رقتها، وغلُظت أفهامهم عن لطفها ودقتها»!

ونتيجة لكل ذلك: فقد اشرأبت نفسه إلى أن يجمع كتابا، مشتملا على جميع ما سقط إليه من اللغة، إلا مالا بال له.

كما عقد العزم: على أن يضع على كل كلمة قابلة للنظر- فى هذا الكتاب- تعليلها، وأن يحكم تفريعها وتأصيلها.

وإذا لم تكن الكلمة قابلة لذلك: وضعها على ما وضعوه، وتركها على ما ودعوه[1].

المخصص: أمل يراود ابن سيده

وظل أمر تأليف المخصص: أملا يراود ابن سيده...

لكن مشاغل الحياة، وأعباءها الثقيلة: أقعدته عن تأليفه وإخراجه! وقد

١- المخصص: ١/ ٧، ٨.

أخبرنا بذلك قائلا[١]:

«لم تزل الأيام بى- عن هذا الأمل- قاطعة،

ولى- دونه- زابنة، مدافعة.

وذلك: بما يستغرق زمنى، من جواهد الأشغال

ويأطر متن قوتى، من لواهد الأعباء والأثقال

مع: ما كنت ألا حظه من: موت الهمم

وقلة المُغلين ثمنا بنفائس الحكم

وتولّى دولة إعمال اللفظ والقلم، فى طاعة الله، وسبيل المجد، والنفع بالمال والجاه: لاقتناء المجد، واجتلاب الحمد».

وشاءت إرادة الله، أن يأمره (الموفق) بتأليف المخصص!

يقول ابن سيده[٢]:

«وكان الذى دعاه إلى الأمر بجمع هذا الكتاب:

أنه- أيده الله- لما تصفح هذا اللسان العربى: رأى العلم به معينا على جميع العلوم عامة، وعلى كتاب الله وسنة نبيه خاصة.

فأراد: حصر ما حكت منه ثقات الأئمة، عن فصحاء العرب، وتأمل ما صنفته- فى ذلك- أعيان رواتهم ومشاهير ثقاتهم؛ فجلت له دقة نظره: عن مثل ما جَلَتْ لى، من إغفالهم لما ذكرت:

وهو: أنهم لم يضعوا- فى ذلك- كتابا جامعا

ولا أبانوا موضوعات الأشياء بحقائقها.

ولا تحرزوا من: سوء العبارة، وإبانة الشىء بنفسه، وتفسيره بما هو أغرب منه.

١- المخصص: ص٨.

٢- السابق: ١/ ٨- ١٠.

فهامت به همته إلى تجميع ذلك!

[ونظر فيمن حوله من العلماء] فوجدنى أعتق تلك القداح جوهرا: فأهّلنى لذلك، واستعملنى فيه، وأمرنى باللزوم له بعد: أن هدانى سواء السبيل، إلى: علم كيفية التأليف!

وأرانى: كيف توضح قوانين التصريف!

وعرفنى: كيف التخلص إلى اليقين، عند تخالج الأمر لما يعترض من الظنون!

[وأمرنى] بإيجاز القول وتسهيله، وتقريبه من الأفهام بغاية ما يمكن!

فدعَامِنّى- إلى كل ذلك-: سميعا، وأمر به مطيعا!

وحُق لمن تسربل من نعمته ما تسربلْت، واشتمل منهما بما اشتملت: أن يبذل الوُسع فى الطاعة، ويتكلف [فى تأليف المخصص] أقصى الطاقة»!

ثالثا: منهج ابن سيده فى تصنيف المخصص

١- وضعه مبوبا (موضوعيا):

شمرّ ابن سيده عن ساعد الجد- بعد أن تلقى الأمر، وأعين على تنفيذه- وأقدم على تصنيف المخصص، وعزم على أن يضعه مبوبا.

وقد بين لنا سبب عزمه على ذلك حين قال[١]:

«إنى لما وضعت كتابى الموسوم بالمحكم مجنسا؛ لأدل الباحث على مظنة الكلمة المطلوبة:

أردت أن أعدل به: كتابا أضعه مبوبا، حين رأيت ذلك: أجدى على الفصيح المدره[٢]، والبليغ المفوه، والخطيب المصقع[٣]، والشاعر المجيد المدقع!

١- المخصص: ١/ ١٠.

٢- زعيم القوم، وخطيبهم ، المتكلم عنهم.

٣- البليغ الذى يتفنن فى مذاهب القول.

فإنه: إذا كانت للمسمى أسماء كثيرة، وللموصوف أوصاف عديدة: تنقَّى الخطيب والشاعر منها ما شاءا واتسعا فيما يحتاجان إليه من سجع أو قافية.

على مثال ما نجده نحن فى الجواهر المحسوسة، كالبساتين: تَجمع أنواع الرياحين، فإذا دخلها الإنسان: أهوت يده إلى ما استحسنته حاستا نظره وشمه».

وهذا المنهج- فى الترتيب والتنظيم- جعل للمخصص مزية كبرى، على المعاجم المجنسة أو اللفظية.

كما جعل له فضلا كبيرا «على الكاتب والعالم، والباحث، والمفتش، المتحرى الدقة فى التعبير اليوم.

وذلك أنه- بينما لا تزيد المعاجم العامة، على أن تشرح له كلمة يعرفها جيدا؛ لأنه سمعها، أو اطلع عليها فى نص من النصوص-:

فإن المخصص: يهديه إلى ضالته- على جهله لها- إذا ما أجال النظر، فى الباب الذى يتصل بما يهم باله.

فإن المصطلحات- أو العبارات- التى هو فى حاجة إليها: قد تكون موفورة فى المعاجم [اللفظية]، إلا أنها تبقى قابعة فى زواياها، لا سبيل إليها، إلا على طريق المخصص، أو الكتب التى هى من نوعه وهو أفضلها»[1].

ولقد حقق ابن سيده، هدفه السالف الذكر، حين جعل المفردات- فى كتابه- «تدور حول فكرة ما، أو موضوع ما، أو أسماء متعددة لمسمى واحد.

ويورد- فى هذا المجال-: المفردات جميعها، التى يرى أنها تدخل فى موضوعه»[2].

فمثلا: نجده تحت عنوان «الأصول»[3]، يجمع كل ما يتصل بهذا العنوان

١- المخصص: دراسة - دليل: ص ٦٦.
٢- الحركة اللغوية فى الأندلس: ص٣٦٥.
٣- المخصص: ٢/ ١٥٠، ١٥١.

من مفردات ومعان، مثل:

القنْس، والكِرْس، والحِنْج والبِنْج، والعِكْر، والمِزْر، والجِذْم، والجِذْر، والجَذْر، والأُرومَة، والجُرثومة، والنِّصاب والمنصِب، والعِيص والإصّ....» إلى أن يصل إلى: «المحْتِد، والمحْقِد، والمحْكِد، والإدْرَوْن». وكل ذلك يدل على «الأصل».

وبذلك: جاء كتابه- كما قال هو[1]-:

«محتو لما انتهى إلينا، من الألفاظ المقولة عليه».

٢- خطة التصنيف:

وقد وضع ابن سيده- لنفسه- خطة يسير عليها، فى تصنيفه لمخصصه، ومعالجته لأبوابه، ومفردات هذه الأبواب.

وتظهر خطوط هذه الخطة، من خلال قوله[2]: «إنه التزم «تقديم: الأعم فالأعم، على الأخص فالأخص.

والاتيان بالكليات قبل الجزئيات.

والابتداء بالجواهر، والتقفية بالأعراض، على ما يستحق من التقديم والتأخير.

وتقديمنا كمْ على كيف.

وشدة المحافظة على التقييد والتحليل.

مثال ذلك: ما وصفته- فى صدر هذا الكتاب- حين شرعت فى القول على خلق الإنسان، فبدأت بتنقله، وتكونه شيئا فشيئا، ثم أردفت بكلية جوهره، ثم بطوائفه، وهى الجواهر التى تأتلف منها كليته.

ثم ما يلحق من العِظم والصغر.

١- المخصص: ١/ ١٢.

٢- السابق: ص ١٠.

ثم الكيفيات: كالألوان، إلى ما يتتبعها من الأعراض، والخصال الحميدة والذميمة».

وتكتمل خطوط خطته، بقوله[1]:

«إنى أودعته (أى: المخصص) ما لم أسبق إليه، ولاغُلب قدحى عليه:

- من تعاريف المنطق
- ورد الفروع إلى الأصول
- وحمل الثوانى على الأوائل
- وكيفية اعتقاب الألفاظ الكثيرة، على المعنى الواحد.

وقصدت من الاشتقاق:

- أقربه إلى الكلمة المشتقة، وأليقه بها، وأدله عليها:

بقول بليغ شاف، وشرح مقنع كاف».

ثم نبه على اختلاف الشروح التى وجدها، وبين كيفية تصرفه معها، فقال[1]:

«وقد وجدت- فى ذلك- اختلافا كثيرا:

- فإما اقتصرت على أصحّه عندى.
- وإما ذكرت اختلافهم، وأحضرت جميع ذلك من الشواهد، ما لحق فكرى».

٣- مصـــادره:

لم يكلفنا ابن سيده، مشقة الترحال، وعنت التجوال، لتتبع مصادره- التى استقى منها- داخل بحر كتابه الواسع، بل كشف لنا النقاب عنها، فى تقديمه

١- المخصص: ١/ ١٣.

لكتابه، حين قال[١]:

«**فأما ما نثرت عليه من الكتب:**

- فالمصنف، وغريب الحديث، لأبى عبيد [ت ٢٢٤ هـ] وغيره.

- وجميع كتب يعقوب [ابن السكيت ت ٢٤٤ هـ][٢]: كالإصلاح، والألفاظ، والفرق والأصوات، والزبرج، والمكنى، والمبنى، والمد والقصر، ومعانى الشعر.

- وكتابا ثعلب [أبو العباس أحمد- ت ٢٩١ هـ] : الفصيح والنوادر.

- وكتابا أبى حنيفة [الدينورى ت ٢٨٢ هـ] فى: الأنواء، والنبات.

- **وغير ذلك من كتب:**

* الفراء [أبو زكريا يحيى بن زياد- ت ٢٠٧ هـ].

* والأصمعى [عبد الملك بن قريب- ت ٢١٦ هـ]

* وأبى زيد [سعيد بن ثابت- ت ٢١٥ هـ].

* وأبى حاتم [سهل بن محمد- ت ٢٤٨ هـ].

* والمبرّد [أبو العباس محمد بن يزيد- ت ٢٨٥ هـ].

* وكُراع [على بن الحسن الهنائى- كان موجودا فى أوائل القرن الرابع الهجرى].

* والنضر [بن شميل- ت ٢٠٣ هـ].

* وابن الأعرابى [أحمد بن محمد بن زياد- ت ٢٣١ هـ].

* واللحيانى [على بن المبارك- أخذ عنه أبو عبيد المتوفى ٢٢٤ هـ].

١- المخصص: ١/ ١٢، ١٣.

٢- ما بين المعقوفين زيادة للإيضاح.

* وابن قتيبة [أبو محمد عبد الله بن مسلم- ت ٢٧٦ هـ].

وما سقط إليَّ من ذلك.

وأما من الكتب المجنسة [معاجم الألفاظ]:

*فالجمهرة [لأبى بكر بن دريد- ت ٣٢١ هـ].

* والعين [للخليل بن أحمد- ت ١٧٥ هـ].

* والبارع [للقالى- أبو على إسماعيل بن القاسم- ت ٣٥٦ هـ].

وأضفت إلى ذلك:

كتاب- أبى بكر محمد بن القاسم الأنبارى [ت ٣٢٨ هـ]- الموسوم بالزاهر.

وحليته بما اشتمل عليه كتاب سيبويه [أبو بشر عمرو بن عثمان- ت ١٨٠ هـ] من اللغة المعللة، الممثلة.

وأضفت إلى ذلك:

* كل كتاب سقط إلينا، من كتب أبى على الفارسى، النحوى [ت ٣٧٧ هـ]: كالإيضاح، والحجة، والإغفال، ومسائله المنسوبة إلى ما حله من [أماكن]: كالحلبيات، والقصريات، والبغداديات، والشيرازيات، وغيرها من المنسوبات.

* وككتاب: أبى سعيد السيرافى [الحسن بن عبد الله- ت ٣٦٨ هـ] فى شرح الكتاب.

* وكتب: أبى الفتح عثمان بن جنى [ت ٣٩٢ هـ]، ما سقط إليّ منها، وهى:

- التمام [فى تفسير أشعار هذيل، مما أغفله السكرى]، والمعُرب، والخصائص، وسر الصناعة، والمتعاقب [فى تعاقب العربية]، وشرح شعر المتنبى، وتفسير شعر المتنبى، وتفسير شعر الحماسة.

* وككتب أبى الحسن على بن عيسى الرمانى [ت ٣٨٤ هـ] وهى:

- الجامع فى تفسير القرآن، والمبسوط فى كتاب سيبويه، وشرح موجز أبى بكر السرى [السرَّاج ت ٣١٦هـ]».

* إلى غير ذلك من المصادر التى سها عن ذكرها، مثل: «كتاب فى خلق الإنسان» لثابت بن أبى ثابت، وغيره.

٤- طريقته فى الإفادة من مصادره:

وقد كانت طريقته المثلى فى الإفادة من هذه المصادر: أنه كان ينقب فى كل موضوع من موضوعاته، عن أحسن كتاب، أو كتب ألفت فى هذا الموضوع، وأغزرها مادة، ثم يجعلها عماده، ويكملها بما يعثر عليه فى الكتب الأخرى[١].

«**وكان من نتيجة ذلك:** أن كثر ورود أسماء بعينها فى أبواب، وقل فى أبواب أخرى.

فثابت مثلا وهو صاحب «كتاب فى خلق الإنسان»[٢]: يتردد ذكره كثيرا فى الجزء الأول [والثانى] الذى يدور حول هذا الموضوع، ولكنا سنجد صعوبة بالغة، فى العثور على اسمه فى الأجزاء الأخرى من المخصص»[٣].

وكذلك الأمر كان بالنسبة لأبى حنيفة الدينورى: فقد تردد اسمه كثيرا فى كتاب النبات، لأنه اتخذ من كتابه- فى النبات- أساسا بنى عليه، وزاد عليه، ما وجده فى المصادر الأخرى.

٥- اعتذاره عن الأخطاء التى قد توجد فى كتابه:

مما لا شك فيه: أن ابن سيده، قد بذل غاية جهده، فى أن يأتى كتابه-

---

١- انظر: المعاجم العربية- موضوعات وألفاظا: ص٧١.

٢- طبع فى الكويت سنة ١٩٥٦ بتحقيق: عبد الستار فراج.

٣- الحركة اللغوية فى الأندلس: ص ٣٦٦.

المخصص- خاليا من الأخطاء، بمختلف أنواعها، وأشكالها.

ولكن عمله- مثل كل عمل بشرى- معرض للخطأ والنقصان. وقد أدرك ابن سيده، هذه الحقيقة- على الرغم من ترفعه وتعاليه على أقرانه- ولذلك: سارع بالاعتذار- بين يدى كتابه- عما يمكن أن يوجد فيه من أخطاء متعللا بظروفه البصرية، واعتماده على غيره، فى الكتابة والقراءة، من ناحية، وباحتمال الزللْ العفوى من ناحية أخرى.

وذلك حين قال[1]: «اعلم أنه ربما وقعت فى أثناء كتابى هذا: كلمة متغيرة عن وضعها! فإن كان ذلك: فإنما هو موقوف على الحَمَلة، ومصروف إلى النقلة، لأنى- وإن أمليته بلسانى- فما خطته بنانى، وإن أوضعت- فى مجاريه- فكرى: فما أرتعت فيه بصرى!

مع أنى لا أتبرأ أن يكون ذلك من قِبَلى، وأن يكون موضعا، قد ألوى فيه بثباتى زللى.

فإن ذوات الألفاظ لا تؤخذ بالقياس، ولا يستدل عليها بالعقل والإحساس: إنما هى نغم تُقَيَّد، وكلم تُسمع فتقلد».

ثم يضرب المثل بعلماء العربية القدامى، الذين أخطأوا، فيقول[2]:

«هؤلاء أهل اللغة: حَمَلتها وحماتها ونقلتها، ورواتها مشافهوا الفصحاء، ومفاوهوا الصرحاء، المغبرون إلى [أرضها] أقدامهم، المكسرون على ضبطها أقلامهم [من مثل] الأصمعى، والمفضل، وأبى عبيدة، والشيبانى: قد غلطوا بأشياء، تسكعوا منها فى عمياء!!

هذا: ولا يعرفون علما سواها، ولا يتحملون من العلوم شيئا ما خلاها! **فكيف بى** مع تأخر أوانى، وبُعد مكانى، ومصاحبتى للعجم، وكونى- من

١- المخصص: ١/ ١٣.

٢- السابق: ص ١٣، ١٤.

بلادى- فى مثل الرُّجَم»[1]؟!

رابعا: تقسيمات ابن سيده لمخصصه والملاحظات عليها

قسم ابن سيده مخصصه إلى «كتب يبحث كل منها فى موضوع محدد، أو- على الأقل- كان يفترض أن يبحث فى موضوع محدد»[2].

وكانت هذه الكتب أشبه ما تكون بالرسائل المفردة، لمواضيع لغوية محددة.

ومن هذه الكتب:

١- كتاب خلق الإنسان (١/ ١٥)
٢- كتاب الغرائز (٢/ ١٤٨)
٣- كتاب النساء (٣/ ١٥٤)
٤- كتاب اللباس (٤/ ٦٣)
٥- كتاب الطعام (٤/ ١١٨)
٦- كتاب السلاح (٦/ ١٦)
٧- كتاب الخيل (٦/ ١٣٥)
٨- كتاب الإبل (٧/ ٢)
٩- كتاب الغنم (٧/ ١٧٦)
١٠- كتاب الوحوش (٨/ ٢١)
١١- كتاب السباع (٨/ ٥٨)
١٢- كتاب الحشرات (٨/ ٩١)
١٣- كتاب الطير (٨/ ١٢٤)
١٤- كتاب الأنواء (٩/ ٢)
١٥- كتاب النخل (١١/ ١٠٢)
١٦- كتاب المكنّيات والمبنّيات والمثنّيات (١٦٩/١٣)
١٧- كتاب المثنّيات (١٣/ ٢٢٣)
١٨- كتاب الأضداد (١٣/ ٢٥٨)
١٩- كتاب الأفعال والمصادر (١٢٢/١٤)
٢٠- كتاب المقصور والممدود (٩٥/١٥)

وتقسم تلك الكتب إلى أبواب جزئية، يعالج فيها أجزاء من موضوع ذلك الكتاب.

وتتخلل تلك الكتب أبواب فرعية، يعالج فيها موضوعات أخرى خارج

١- الرُّجم: حجارة تنصب على القبر، كالرُّجمة.
٢- الحركة اللغوية فى الأندلس: ص ٢٦٣.

تلك الكتب[١].

ملاحظات على تلك التقسيمات

١- مصطلح «كتاب» وهل كان وفيًا له؟

القارئ للمخصص يلحظ أن صاحبه لم يكن- فى بعض الأحيان- يتوج موضوعاته الكبيرة بعنوان: «كتاب»، بل كان- أحيانا- يتوجها بعنوان: «أبواب»!

ومن أمثلة ذلك: «كتاب المشى»، الذى عنونه بـ «أبواب المشى» (٣/ ٩٨) والذى بدأه بـ «نعوت مشى الناس واختلافها» (ص ٩٨) ثم «ومن مشى النساء» (ص ١٠٩)

ومن أمثلة ذلك- أيضا- «كتاب النسب» الذى عنونه بـ «أبواب النسب» (٣/ ١٤٧) والذى يضم أبوابا- أو موضوعات- عديدة، منها: «النسب فى الأمهات والآباء والإخوة» (ص ١٤٨)

وأحيانا أخرى تجد موضوعات: المفروض فيها: أنها تندرج تحت مصطلح «كتاب» أو حتى «أبواب»، ولكنا نجدها غفلا من كل ذلك!!

ومن أمثلة ذلك: «كتاب الأصوات». فقد قال فى نهاية الأبواب المفردة للصوت- «تم كتاب الأصوات بحمد الله وعونه».

ونرجع إلى الخلف لنتحسس بداية هذا الكتاب، ونعرف بحاستنا اللغوية، أنه يبدأ عند «شدة الصوت، وبُعد ذهابه، وما يعمه» (٢/ ١٣٠).

وهذا يأتى عقب «باب الفصاحة» الذى يبدأ من (٢/١١٢) إلى (٢/١٢٩).

وباب الفصاحة هذا- أيضا-: كان ينبغى أن يطلق عليه «كتاب الفصاحة» ولكنه أتى به تحت عنوان «باب».

٣- انظر: معجم المعاجم: ص ١٥٣.

وقد يدل ذلك كله على أن مصطلح «كتاب» ليس موضوعا دائما فى مكانه من المخصص، بل أحيانا يوضع، وأحيانا يستبدل بمصطلح «أبواب» وأحيانا بمصطلح «باب» وأحيانا أخرى: لا هذا ولا ذاك كما فى «الأصوات»، مما أحدث فوضى فى تنظيم المخصص!

٢- تقسيم الكتب إلى أبواب وهل كان حفيًا به؟

والمفروض أن تقسم هذه الكتب الكبيرة إلى أبواب فرعية. ولكنه كان قليلا ما يتوجها بلفظ باب، وغالبا ما يتركها هكذا عارية منه، مكتفيا بعنوان الموضوع.

ومن أمثلة ذلك: ما حدث فى «كتاب اللباس»، حيث أتت بعده العناوين التالية- دون أن تتوج بمصطلح باب- وهى:

عامة الثياب (٤/ ٦٣) الرقيق من الثياب (ص ٦٣)
الكثيف من الثياب (ص ٦٤) المزأبر من الثياب (ص ٦٥)
باب المخطط من الثياب (ص ٦٦) وهذا- فقط- هو الذى أتى مميزا بمصطلح «باب» مغايرا لما سبقه أو لحق به، دون أى وجه للتمييز أو التميز[1]!

وفعل ابن سيده، نفس الشىء فى «كتاب الغرائز» (٢/ ١٤٨- ٣/ ٩٨) حيث ملأه بموضوعات كثيرة، ولم يتوج أيًا منها بلفظ «باب» إلا موضوعين اثنين- لا يتميزان عما حولهما بأى شىء- وهما: «باب الخبرة» (٣/ ٣٤) ويقع فى ثلاثة أسطر وعُشر السطر.

و «باب السر» (٣/ ٧٥) ويقع فى سبعة أسطر.

وفعل مثل ذلك- أيضا- فى كتاب النخل (١١/ ١٠٢- ١٢/ ٣٢٩) فكلمة «باب» لم تذكر خلال هذه المساحة العريضة- من الصفحات- إلا لماما، حيث ذكرت فى مفتتح كتاب النخل، تحت عنوان «باب اغتراس النخل وافتساله وبدء نباته» (ص ١٠٢).

١- انظر: الحركة اللغوية فى الأندلس: ص ١٦٤.

ثم ذكرت (ص ١٠٤) حيث قال: «باب أصول النخل».

ثم ذكرت- بعد ذلك- فى الصفحات التالية: ١١/ ١٣٧، ١٢/ ٧٣، ٨٤، ٩٨، ١٤٠، ١٩٠، ١٩٨، وفيما بين ذلك كله: موضوعات غير متوجة بلفظ «باب».

وقد يأتى بموضوع متوجا بمصطلح «باب» دون أن يذكر لهذا الموضوع عنوانا، حيث قال- عقب «باب الإخوة»- «باب» ثم لم يذكر له عنوانا! وعندما تقرأ هذا الباب تجد أنه يتصل بأخوة الصفات، وليس بأخوة البشر، حيث يقول- فى مفتتحه (١٣/ ٢٢٠): «يقال تركته أخا الخير، أى: هو بخير، وتركته أخا الشر، أى: هو بشرّ»..... وهكذا.

ونتيجة لهذا الذى رأيته فى ثنايا المخصص، يصح لى: أن أقول- كما قال الطالبى[١]:- إن هذه المصطلحات، ما هى إلا «إكليل يتوج بعض العناوين، دون البعض الآخر، من غير أن ندرك السر، أو الميزان فى التفضيل.

والحق: أنه ليس هناك من ميزان سوى الصدف»

وقد كان هذا- بلا شك- سببا فى إحداث كثير من التشويش، والفوضى فى العناوين[٢].

٣- اختلاف حجم هذه الأبواب:

والفوضى التى حدثت فى عناوين المخصص: حدثت مثلها فى أحجام تقسيمات الكتب الداخلية إلى أبواب!

فهذه الأبواب- أو الموضوعات المتفرعة عن الكتب- تختلف فيما بينها- من ناحية الحجم- اختلافا بعيدا.

إذ بينما لا يزيد بعضها عن سطر واحد وعُشر السطر، مثل: «باب البهائم»

١- المخصص- دراسة- دليل: ص ٢٢.

٢- انظر: الحركة اللغوية فى الأندلس: ص ٣٦٥.

(٦/ ١٣٣) أو: لا يزيد عن أربعة أسطر وعُشر السطر، مثل: «باب التحسّى» (٥/ ٣١) و «باب الهزيمة» (٦/ ٨١) و «ذكر الحافر» (٦/ ١٣٤) نرى بعضها يشغل صفحات عديدة، تصل إلى سبع صفحات ونصف، مثل «باب خلق الخيل» (٦/ ١٣٨- ١٤٥).

وقس على هذا، كثيرا من أبواب المخصص المتباينة فى الطول، مما أحدث- كثيرا- من الفوضى فى التقسيمات الداخلية للمخصص.

٤- اضطراب الكتب فى موضوعاتها:

وبعض الكتب- داخل المخصص- قد تشتمل على موضوعات، لا تمت إلى بعضها- أو- إلى عنوان الكتاب، المندرجة تحته- بِصِلة! ولذلك فإنها لم تأت فى مكانها الشاذ هذا- كما أعتقد- إلا بسبب توارد خواطر المؤلف، أو من باب: أن الشىء بالشىء يذكر!

ويدلنا هذا على أن ابن سيده، لم يَسْلم «فى معجمه هذا من آفة ذلك الزمان فى الاستطراد، وعدم التقيد بصلب الموضوع! وكان هذا الاستطراد يجره ما يرد على فكر ابن سيده، من أمور مجانسة، أو أمور مناقضة»[1].

ومن أمثلة ذلك: ما حدث منه فى «كتاب النخل»

فهذا الكتاب- إذا أخذنا بالوحدة الموضوعية- كان ينبغى أن ينتهى بنهاية «أسماء التمر» (١١/ ١٣٥).

ولكنه يعقُب ذلك بذكر «الدوم» (١١/ ١٣٦) دون أن يذكر نهاية لكتاب النخل، وبداية لكتاب جديد!

وقلت- فى نفسى-: قد يكون هناك شبه بين النخل والدوم، من أوجه كثيرة! ولكنه أعقب الدوم بـ «البَلَس» (١١/ ١٣٧) وهو شجر التين! وأعتقد أنه لا وجه للشبه بينه، وبين كل من النخل والدوم! ثم يعقب ذلك بأشجار «التفاح والخوخ»

١- الحركة اللغوية فى الأندلس: ص ٣٦٧.

(١١/ ١٣٨) ثم «الجوز واللوز والفستق» (١١/ ١٣٩) و «الرمان» (١١/ ١٤٠).

ثم يأتى بباب كامل لأشجار الجبال (١١/ ١٤٠) ويتبعه بـ «باب الشاك من النبات، الذى ليس بعضاة ولا حمض» (١١/ ١٩٠).

وصحيح أن كل هذه نباتات وأشجار!

ولكن: كان من الممكن أن توضع كل منها فى كتاب مستقل- ككتاب النخل- ثم يفرع هذا الكتاب إلى أبواب، أو موضوعات.

ومن الغريب أننا نجده قد ألحق بهذه النباتات والأشجار: أشياء لا تمت لها بصلة، مثل: «المعادن»!

حيث قال: «ذكر المعدنيات» (١٢/ ٢٢) دون أن يفصل بينها وبين الأشجار والنباتات السابقة الذكر، بفاصل مثل: «كتاب» أو «أبواب» أو حتى «باب»! وأتبع المعادن: بالذهب (١٢/ ٢٢) والفضة (١٢/ ٢٤) والرصاص (١٢/ ٢٥) والحديد وما يصنع منه (١٢/ ٢٥).

وينتهى من المعادن عند «إذابة الذهب والفضة ونحوهما من الجواهر، والطلى بها» (١٢/ ٣٠)، ولكنه يبدأ بعدها مباشرة، بشىء لا يمت إلى المعادن بصلة، وهو: «اسم بقية الشىء» (١٢/ ٣١) ثم «الشىء الممحق الذاهب والمتبدد» (١٢/ ٣٢)، ثم «فساد الشىء واستحالته» (١٢/ ٣٣).

ثم يدخل على موضوع جديد تماما، هو: «الآثار واقتيافها» (١٢/ ٣٣) و«الدلالة والمعرفة بمواضع الماء» (١٢/ ٣٥) إلخ ذلك من المواضيع التى كان ينبغى أن يوضع كل منها فى كتاب مستقل، إذ لا يجمعها بكتاب النخل جامع!!

وقد حدث مثل ذلك، فى كثير من الكتب الأخرى، التى حشدها ابن سيده، فى مخصصه!

ففى «كتاب السلاح» (٦/ ١٦- ١٣٤) نجده يذكر فيه، كل ما يتصل بالسلاح، حتى يصل به إلى «الهلاك، والموت، والنعش، والتكفين، والقبر،

والدفن» (٦/ ١٣١) لكنه يعقب ذلك بذكر «باب البهائم» (٦/ ١٣٣) فى سطر وعشر السطر، ثم يأتى بـ «ذكر الحافر» (٦/ ١٣٤) فى أربعة أسطر!

وهذان البابان- أو الموضوعان- لا علاقة لهما بكتاب السلاح، وكان يمكن أن يضمهما إلى «كتاب الخيل» الذى أتى بعدهما (٦/ ١٣٥).

وفى «كتاب الغرائز»: نجده يذكر بعض الموضوعات التى لا تتصل بالغرائز، وكان يمكن أن تأتى فى «كتاب خلق الإنسان» مثلا.

ومن هذه الموضوعات: «الحسن والقبح فى الجسم» (٢/ ١٥١)، و«السيادة وبعد الهمة، والتناهى فى الفضل» (٢/ ١٥٨) و «العقل والرأى» (٣/ ١٥).

وكل ما سبق ذكره يجعلنا نفترض أن بعض العناوين قد سقطت سهوا من الناسخ، أو من المؤلف[١].

ويتحول افتراضنا إلى اعتقاد إذا ما وجدنا إشارة أتت فى نهاية الأبواب المفردة للصوت، تنص على ما يلى:

«تم كتاب الأصوات بحمد الله وعونه» (٢/ ١٤٨) وهذه الإشارة تدلنا على انتهاء كتاب لم يسبق ذكر عنوان له! «وإذا ما سقط عنوان هذا الكتاب: أيبعد أن تكون قد سقطت عناوين أخرى كثيرة؟ مما أخل بنظام المؤلف وانسجامه»[٢]!

ولعل السبب- فيما رأيناه من اضطراب فى نظام الكتب وموضوعاتها- يعود إلى أن المؤلف- كما قلت سابقا- كان ينساق وراء توارد الخواطر، «فهذا التوارد هو الذى يفكك- من حين إلى آخر- إطار الكتاب، تحت مفعول

١- ذهب الطالبى (ص٢٠) إلى براءة المؤلف من مثل هذا السهو، واتهم به الناسخ فقط. ولكنى أذهب إلى أن المؤلف يمكن أن يكون له دور فى هذا السهو أيضا، خاصة وأنه كان يملى فقط، وقد لا يراجع ما يمليه.
ثم إن الناسخ- عادة- لا يتدخل فى المُملى، بل يكتب ما يملى عليه فقط.

٢- المخصص- دراسة- دليل: ص ٢٠.

ضغطه[١]، وجارف فيضه[١]، وهو الذى يميط اللثام عن كثير من ضروب التنسيق، التى نستغربها! من حيث كانت تبدو للمؤلف بديهية طبيعية[٢]!!

٥- هل يعاد تقسيم المخصص من جديد، عند طبعه مرة اخرى؟

ذلك ما رآه، واتجه إليه الطالبى، حيث قال[٣]: «أتت تجزئة المخصص- فى هذه الطبعة- على غاية من الاختلال! ويعسر أن نجد لها أدنى مبرر ما سوى الصدف، واقتداء الناشر بالناسخ الذى وزع الصحف توزيعا يتحدى كل معقول، أفسد به انسجام المؤلف، وحطم هيكله، وأغدق عليه من الفوضى والتشويش ما يندر العثور عليه فى أى مصنف آخر، مهما كان نوعه»!

وذهب الطالبى، إلى أن من مظاهر ذلك[٣]: أن «الأسفار تصغر وتتضخم، وتبتدئ وتنتهى، من دون أن يعرف لذلك سبب!! فلا وحدة تميزها، ولا جمع فيها لمواد متشاكله»

ثم استبعد « أن يُعزى هذا التشويش البين إلى ابن سيده» ولذلك رأى أنه «ليس من خيانة مراد المؤلف- فى شىء- إصلاحه» وأسف «لعدم تفطن الناشرين للأمر» **وتمنى استدراك هذا الأمر** «فيما إذا أعيد طبع المخصص يوما»[٣] ولكنه لم يخبرنا كيف نعيد تقسيم الكتاب مرة أخرى؟ وعلى أى أساس يتم ذلك الأمر.

ولكن المستشرق الأسبانى كابانيلاس رود ريجيث، أخبرنا أنه يمكن إعادة تقسيم المخصص، إلى خمسة أقسام، بيانها كما يلى[٤]:

«أولا: خلق الإنسان ومظاهره.

ويشمل مواضيع:

١- المراد: ضغط توارد الخواطر وفيضها.

٢- المخصص: دراسة- دليل: ص ٢١.

٣- السابق: ص ١٨، ١٩.

٤- انظر بحثه: المخصص لابن سيده المرسى: أول معجم موضوعى فى الغرب الإسلامى- مجلة منوعات من الدراسات العربية والعبرية: ص ١٨، ١٩- إصدار جامعة غرناطة فى ١٠/ ١٩٦١م.

خلق الإنسان- اختلاف الطبائع البشرية- النساء- الملبوسات- الأغذية- الأمراض- الديار- الأسلحة وما يتبعها.

ثانيا: الحيوانات وتشمل:

الخيل- الغنم- الإبل- السبع- الحشرات- الطيور.

ثالثا: الطبيعة بشكل عام، وبشكل خاص: النبات، وتشمل:

النخيل- الأشجار المثمرة- النباتات البرية، والعطرية، وأنواعها.

كما يشمل: المناجم.

رابعا: حياة الإنسان الإجتماعية وتشمل المظاهر التالية:

صفاته الطبيعية- العمل- الصفات الأخلاقية- علاقة الإنسان بغيره من البشر، واختلافاته معهم- المعتقدات الدينية- طرق تصرفه فى حالات معينة.

خامسا: المشاكل النحوية والصرفية، والقضايا اللغوية، كالتضاد وغيره».

وأعتقد أن تنفيذ هذا الاقتراح: يصاحبه عُسر ومشقة، وتكلّف لا يعلم مداه إلا الله.

بالإضافة إلى أننا- عند التنفيذ- قد نجد أشياء- داخل المخصص- لا نستطيع أن نسلكها داخل أى قسم من هذه الأقسام، فنضطر إلى زيادة التفريع، وهكذا.

وفى هذا من التكلف ما فيه.

ولذلك: أذهب إلى أنه من الأولى: أن نترك الكتاب على حاله، كما وضعه صاحبه، دون تعديل فى نظامه أو تبديل، ودون تقديم فى محتوياته أو تأخير، ودون ضم لأجزائه المتشابهة، بعضها مع بعض.

فهو كتاب من التراث، أَلِفه الناس هكذا، وتعودوا عليه بحالته الراهنة، ورجعوا إليه على حالته تلك، وسجلوا تهميشاتهم على ذلك الأساس، فلا يصح

منا أن ننقض غزله، حتى لا يصبح كيانا جديدا، ليس بينه وبين القديم كبير صلة.

وإذا أردنا أن نخدمه حقا- وبالتالى نخدم أنفسنا والمطالعين فيه-: فإننا يجب أن نجتهد فى إحضار صور من النسخ الباقية له فى مكتبات العالم المختلفة، وخاصة: اكسفورد والإسكوريال، والقاهرة[1] وذلك حتى نستطيع أن نُخرج منه صورة سليمة، خالية من السقط والبياض، الذى يشوه وجه الطبعة الأميرية.

ثم نعيد طبعه محققا، فى طبعة فنية فاخرة، تليق بمكانته.

مع الوضع فى الاعتبار:

أن نضع على هوامش الطبعة الجديدة: علامات رقمية، تشير إلى بدايات ونهايات أسفار وصفحات طبعة الأميرية؛ حتى لا يشعر القارئ القديم بغربة وسط دروب الطبعة الجديدة.

بالإضافة إلى صنع فهرس علمى فنى للكتاب، يرشد إلى جزئياته، وينير مسالكه أمام القارئ، متخذين- نبراسا لنا فى ذلك- تلك الفهارس التى صنعها الأساتذة الأجلاء:

١- عبد الخالق عضيمة.

٢- عبد السلام هارون.

٣- محمد الطالبى.

ومستهدين بما بُذل من جهد مشكور، فى هذه الفهارس، سادّين أوجه النقص، إن كانت هناك أوجه نقص.

* * *

١- انظر: تاريخ آداب اللغة العربية: جرجى زيدان: ٢/ ٣١٤.

خامساً: شخصية ابن سيده فى مخصصه

الطالبى وابن سيده:

١- هوّن الطالبى مما صنعه ابن سيده فى مخصصه، وقال[١]: إنه حاك كتابه على شاكلة الغريب المصنف، الذى كان «يحفظه حفظا جيدا عن ظهر قلب، مما سهل عليه مؤنة الحياكة على شاكلته، والتوسع فى مادته»

كما قال: «إن ابن سيده، لم يكتف بتأليفه كتابه هو أيضا من كتب مفرده، لمواضيع مختلفة، ناسجا- فى ذلك- على مجموع أبى عبيد، بل هو لم يبخل على نفسه، بنقل عناوين هذه الكتب نقلا حرفيا عن الغريب المصنف»

ثم قال: «وإذا ما لاحظنا أن ابن سيده، ينقل- أيضا- من «الغريب» عناوين أبوابه بحذافرها- مع التوسع فيها-:

اتضح لنا: أن صاحب المخصص لم يخترع شيئا، ولم يفتح بابا- فى تصنيف المعاجم جديدا، وإنما غاية أمره: أنه فطن إلى قيمة هذه الطريقة، التى كانت- فى أول أمرها- وليدة الصدف، والسعى وراء جمع اللغة فحسب»

وهذا التهوين من صنيع ابن سيده- فى مخصصه- تنقضه شهادة حق، أدلى بها الطالبى نفسه، حين قال[٢]:

«إن المخصص يحتل- بين المصنفات اللغوية الموسعة- محلا ممتازا:

- إذ يعد من أقدمها، وأوفرها مادة.

- سبق اللسان والقاموس والتاج[٣]، مما وصلنا، وغير هذه الكتب، مما لم يصلنا.

١- المخصص: دراسة- دليل: ص ٢٤، ٢٥.

٢- السابق: ص ٥٨.

٣- معجم: تاج العروس من جواهر القاموس، للسيد المرتضى الزبيدى المتوفى سنة ١٢٠٥هـ.

- ثم هو: حفظ لنا ما حفظ، من مواد لغوية، نحوية، ضاعت كتبها، واندثرت».

ولكن: يبدو أن اتساع مادة بحث الطالبى، جعلته لا يتذكر ما قاله أولا، فيناقض نفسه آخرا!!

٢- **وقد أذهب إلى بعض ما ذهب إليه الطالبى، وخاصة** ما أفاده، من أن ابن سيده قد اتخذ من «الغريب المصنف» إطارا عاما يُحتذى لكتابه.

لكنى اختلفت معه فى أنه قد نسج لُحمة أبواب المخصص، مثل لحمة أبواب الغريب المصنف، وأقول:

إنه اختلف عنه اختلافا كبيرا، فى: العناوين الداخلية، والمواد التى تملأ نهر الموضوعات.

وذلك لأنه لم يقتصر على ما جاء فى الغريب المصنف، بل أضاف إليه ما حفظه من كتب أخرى، تدور فى نفس الفلك.

ثم إنه تميز فى نقله من هذه الكتب، حيث لم ينقل من النصوص نقلا حرفيا، بل كان- كما يقول الطالبى نفسه[١]-:

«يتناولها بالتقديم والتأخير، وبالتلخيص، وبتغيير العبارة، وببعض التعليق أحيانا، فيأتى الاختلاف بين المخصص ومصادره» دالا على بروز شخصية صاحب المخصص، وتصرفه فيما بين يديه من مصادر كثيرة، أودعت كلها فى رأسه، فصار يختار منها ما يناسب كتابه، ويقدم منها ما يستحق التقديم، ويختصر ما يحتاج إلى اختصار، ويعلق على ما يحتاج إلى تعليق!!

ولذلك: جاءت الصياغة- فى المخصص- مختلفة عما عداه، والعناوين متغايرة.

وقد أورد الطالبى[٢] بعض عناوين «كتاب خلق الإنسان» من «الغريب المصنف» بغرض المقارنة مع عناوين «كتاب خلق الإنسان» فى «المخصص»، لكى

١- المخصص- دراسة- دليل: ص ٣٨.

٢- السابق: هامش رقم ١ من ص ٢٥.

يخرج القارئ بانطباع مفاده: أن ابن سيده، نقل من «الغريب المصنف» كل شيء حتى العناوين الداخلية.

ولكنى قارنت بين هذه العناوين الداخلية- التى أوردها الطالبى- لكتاب خلق الإنسان، فى كل من كتابى: أبى عبيد وابن سيده، فلم أر تشابها- ولو طفيفا- بين هذه العناوين مما لا يعطى الفرصة، لأن نقول مثل ما قال الطالبى!! وإليكم العناوين الداخلية، لكتاب خلق الإنسان، فى كل من كتابى: «الغريب المصنف» و «المخصص» مقابلين لبعضهما، حتى تستطيعوا أن تحكموا بأنفسكم:

العنوان فى «الغريب المصنف»:	**العنوان فى «المخصص»:**
باب تسمية خلق الإنسان ونعوته (ورقة ١)	كتاب خلق الإنسان (١/ ١٥)
باب نعوت خلق الإنسان (ورقة ٦)	باب الحمل والولادة (١/ ١٧)
باب نعوت دمع العين وغؤورها وضعفها وغير ذلك (ق ٧)	أسماء ما يخرج مع الولد (١/ ٢٣)
باب أسماء النفس[١] (ورقة ٨)	الرضاع والفطام والغذاء وسائر ضروب التربية (١/ ٢٥)
باب الطوال من الناس (ورقة ٨)	
باب نعوت الطوال مع الدقة والعظم[٢] (ق ٩)	الغذاء السئ للولد (١/ ٢٩)
باب القصار من الناس (ق ٩)،	
باب نعوت القصار من الناس (ق ٩)	أسماء أول ولد الرجل وآخرهم (١/ ٣٠)
باب نعوت القصار مع السمن والغلظ[٣] (ق ٩)	أسماء ولد الرجل فى الشباب والكبر (١/ ٣٠)
باب الألوان واختلافها (ورقة ١٠)	أسنان الأولاد وتسميتها من مبدأ الصغر إلى منتهى الكبر (١/ ٣٠)

١- هذا الباب لم يذكره الطالبى فى إحصائه- انظر: ص ٢٥ ها (١).
٢- ذكره الطالبى: باب نعوت الطوال من الناس- المرجع السابق.
٣- «والغلظ» ساقط من إحصاء الطالبى.

باب الأصوات واختلافها (ورقة ١٠)	أسنان النساء من مبدأ الصغر، إلى منتهى الكبر (١/ ٤٦)
باب أصوات كلام الناس وحركتهم (ورقة ١١)	اللدة والترب (١/ ٥١)
باب الألسنة والكلام (ورقة ١١)	ذكر شخص الإنسان وقامته وصورته (١/ ٥١)

.....إلخ العناوين فى الكتابين[١]!!

فهل بعد هذه المقارنة: نقول- مع الطالبى- «إن ابن سيده ينقل أيضا من «الغريب» عناوين أبوابه بحذافرها»؟!!

أم نذهب مذهبا آخر؟!!

٣- تراجع الطالبى:

وبعد أن سحب الطالبى، البساط من تحت أقدام ابن سيده وكتابه، وهون من أمره، وقلل من شأنه: نجده- ويا للغرابة- يناقض رأيه الأول، فيقول[٢]: **«على أن طرافته (المخصص) ليست معدومة تماما!**

فإن اقتبس ابن سيده، الإطار (إطار الغريب المصنف) فقد أفعمه مادة، هى أضعاف ما نجد بمصنف أبى عبيد!

وهى أقل اقتصارا على الغريب وهى أكثر ثروة وأجدى نفعا!

لقد أُفرغ الغريب بالمخصص، ووزع على كتبه وأبوابه، ومختلف فصوله.

وأخذ بالتنقيح والتعقيب أحيانا.

وأضيف إليه الشىء الكثير»!

وهل كل هذا الذى فعله ابن سيده- فى مخصصه- يعطى كتابه شيئا من الطرافة فقط؟

١- رجعت- فى هذه المقارنة إلى مخطوط «الغريب المصنف»- نسخة عارف حكمت، وإلى المخصص ط الأميرية.

٢- المخصص- دراسة- دليل: ص ٢٥.

وهل كل هذا لا يجعل لابن سيده: شخصية مستقلة، واضحة فى كتابه؟! حيث أنه لم يحذ حذو أبى عبيد حذوك النعل بالنعل، بل أخذ من كتابه الإطار العام، واختلف معه فى كثير من الأطر الفرعية الداخلية.

- حيث أجرى- فى هذه الأبواب المقتبسة تغييرا جوهريا[١]:

فحذف منها ما لا يحتاجه.

وحشاها بالجديد، الذى لم يقف عليه أبى عبيد.

وغير فى ترتيبها الداخلى، حسب مقتضيات الأحوال التأليفية الجديدة.

- كما اختلف مع أبى عبيد، فى صنف العلماء الذين رجع إليهم كل منهما[٢]:

فقد قصر أبو عبيد مراجعه على اللغويين.

أما ابن سيده: فقد أشرك معهم النحويين، والصرفيين، ولاسيما سيبويه، وأبا على الفارسى، والسيرافى، وابن جنى.

ولذلك وُجدت عنده أبواب نحوية صرفية خالصة[٣]، لا تجدها فى كتاب أبى عبيد، كما وجدت عنده أبواب يغلب عليها التعليلات النحوية والصرفية[٤].

- ثم إنه أفعم هذا الإطار مادة، وهى- كما يقول الطالبى نفسه[٥]-: «أضعاف ما نجد بمصنف أبى عبيد»، وذلك لأنه:

١- انظر: المعجم العربى- د. نصار: ١/ ١٣٣.

٢- انظر: المرجع السابق: ص ٢١٢.

٣- مثل: كتاب المقصور والممدود: ١٥/ ٩٥، باب فى (ما) النافية: ١٣/ ٢٥٦، لام الجر: ١٦/ ٥٠، باب العدد: ١٧/ ٩٦- ١٣٠

٤- هذا منتشر في كثير من أبوابه ، وتعليقاته على العلماء السابقين، وانظر: أمثلة من استدراكاته: ص ٢٧٠- ٢٧٢ من هذا البحث.

٥- المخصص- دراسة- دليل: ص ٢٥.

- حشاها «بزيادات كثيرة تتألف من:

مشتقات اللفظ الذى يعالجه، أو مرادفات له.

أو مسائل لغوية، ونحوية وصرفية تتصل به.

أو شواهد من الحديث والأمثال.

أو مخالفة لغوى آخر لتفسيره، أو زيادة عليه، أو ما شابه ذلك»[١].

وإن شئت فاقرأ النصوص التالية من المخصص، وسوف تجدها شاهدة على صدق ما سبق ذكره:

أ- تحت عنوان: «ما فى الفم من اللُّثات والغُمور والأسنان»

قال ابن سيده[٢]:

«**ثابت:** فى الفم اللِّثة، وهو اللحم الذى على أصول الأسنان يمسكها.

ذهب أبو الحسن[٣]: إلى أنها: فِعْله، من لاث يلوث.

وذهب ابن جنى: إلى أنه من اللثى- الذى هو الصمغ- وذلك لتلزق اللِّثة ولينها، كلين ذلك الصمغ.

وهذا القول أقيس: لأن مثل هذا: إنما يُحذف من طرفيه، كعدة، وقُله، ولا تحذف من وسطه، كما ذهب إليه أبو الحسن.

صاحب العين: الثّاهة: اللِّثه.

ثابت: ومن اللُّثات: الظمْآى، وهى الذابلة من غير سقم.

أبو حاتم: الظمَى: قلة دم اللثة ولحمها، رجل أظمى، وامرأة ظمياء. وقد تقدم الظمى فى: الشَّفَة.

١- المعجم العربى: ١/ ١٢٩.

٢- المخصص: ١/ ١٤٤، ١٤٥.

٣- هو: على بن عيسى الرمانى- ت ٣٨٤ هـ.

على[١]: ليس الظمَى من لفظ الظمأ؛ ذلك مهموز، وهذا معتل، إلا أن يكون تخفيفا بدليا، وليس هذا بالوسع، وإلا فهما مختلفا اللفظين، كاحبنطأت واحبنْطيْت»..

ب- وتحت عنوان: «الرَّضاع، والفطام، والغذاء، وسائر ضروب التربية»

قال ابن سيده[٢]:

أبو عبيد: أرغلت المرأة، وهى مرغل: أرضعت.

والملح والمالحة: الرضاع، وأنشد:

لا يُبعد الله ربُّ العبا د والملح ما ولدتْ خالدة

ومنه قوله:

وإنى لأرجو مِلحَها فى بطونكم وما بَسَطت من جِلد أشْعثَ أغبرا

وذلك أنه كان نزل عليه قوم، فأخذوا إبله، فقال: أرجو ان ترْعوا ما شربتم من ألبانها، وما بسطت من جلود قوم، كانت قد يبست، فسمنوا منها.

ومَلحَ: رَضِعَ، ومنه قول بعض مستشفعى بنى سعد للنبى صلى الله عليه وسلم: لو مَلَحْنَا للحارث بن أبى شمِر، أو النعمان بن المنذر.

وقال: أحجمت المرأة للمولود، وهى أول رضعة ترضعه أمه.

على: هذه حكاية لفظة رضعة، والصواب: إرضاعة، لقولهم: أرضعته.

ابن السكيت: ما حَجَم الصبى ثدى أمه، أى: ما مصه.

على: خص به الجحد، وذكره ثعلب فى الواجب.

ج- وتحت عنوان: «اليأس»

١- هو: ابن سيده، وقد كان يرمز لنفسه باسمه الأول فقط، أو يقول: «قال على».

٢- المخصص: ١/ ٢٦.

قال ابن سيده[١]:

«اليأس خلاف الطمع.

ابن السكيت: يئس من ذلك، وأيس.

على: ليس بلغة، ولكنه مقلوب، بدليل: أنه لا مصدر له.

فأما إياس- اسم رجل- فمن قولهم: آسه خيرا، أى: عاضه.

قال ابن جنى: وينبغى أن يكون قوله:

*** وما أنا من سيب الإله بآيس ***

فيمن رواه هكذا، غير مهموز العين، وأن بعد ألف فاعل: ياء صحيحة، وذلك أنها لما صحت فى أيسْت: صحت فى آيس، كما أنها لما صحت فى عور وصيد: صحت فى عاور وصايد.

فإن قيل: ولم صحت العين فى أيست، حتى دعا ذلك إلى تصحيحها فى آيس فالجواب: أن أيسْت مقلوب- على ما تقدم- من يئست، فكما صحت فاء يئست صححوا عين أيست، إشعارا بالقلب عنها، وأن عينها: فاء يئست، وتلك لا تعتل. فأيست- على هذا-: عفلت[٢]:

على: إنما قال (أى: ابن جنى): فيمن رواه هكذا، لأن الرواية المعروفة: «بيائس»[٣]

د- وتحت «باب أسنان الأولاد...»

قال ابن سيده[٤]:

«**الأصمعى** : أفانين الشباب: أوله، واحدها: أفنون.

١- المخصص: ٣/ ٧٠.

٢- أى: على وزن عفلت.

٣- المقصود: الرواية فى قول الشاعر: «وما أنا من سيب الإله بآيس».

٤- المخصص: ١/ ٣٨، ٣٩.

أبو عبيد: الشارخ: الشاب، والجمع شَرْخ، وأنشد:

إن شَرْخ الشباب والشعر الأسـ ـود ما لم يعاص كان جنونا

على: هذه عبارة أبى عبيد، وقد أساء من وجهين:

أحدهما: أنه ظن الشَّرْخ- فى البيت- جمعا لشارخ، الذى هو الصفة، وإنما الشَّرْخ- فى البيت- تمام الشباب.

يقول (أى الشاعر): إن موهة[1] الشباب، وسواد الشعر: داعيان إلى ما يشبه الجنون.

النضر: جمع الشَّرخ: شُروخ، وشروخ شُرَّخ، على المبالغة.

على: ليس الشروخ جمع شَرْخ- على أنه صفة- لأنا لم نسمعهم وصفوا به، لم يقولوا: رجل شرخ، إنما الشروخ عندى: جمع شارخ، كجلوس، وسجود: جمع جالس وساجد، وأنشد:

*** صيد تسامى، وشروخ شُرَّخ ***

ابن دريد: شرخ الشباب: أيامه.

غيره: شرخ الشباب: أوله.»

هـ- وتحت: «فى القصار من الناس»

قال ابن سيده[2]:

«**ابن دريد:** والقنبض، والأنثى: قنبضة، والقمبض، كله: القصير.

على: ليس القُمبض لغة وضعية، لأنه ليس فى الكلام (ق م ب ض)، على هذه الصورة، وإنما الميم فيها بدل من النون، للمجاورة والمضارعة، كما حكاه سيبويه، من قولهم: عمبر وشمباء».

١- أى: ترقرق الماء فى وجه الشاب.

٢- المخصص: ٢/ ٧٣.

مقارنة بين نصوص المخصص هذه، ونظيراتها فى الغريب المصنف:

وقد راجعت هذه النماذج السابقة، والمختارة من المخصص، والتى يتوفر فيها كثير من الخصائص التى تميز بها كتاب ابن سيده.

أقول: راجعتها على كتاب «الغريب المصنف» لأبى عبيد، فوجدت ما يلى:

أولا: هناك عناوين أبواب- فى المخصص- لم أجد لها ظلا فى الغريب المصنف، وهى:

١- «ما فى الفم من اللِّثات والعمور والأسنان»[١]

٢- «اليأس»[٢]

ثانيا: هناك أبواب من المخصص، وجدت عناوينها فى «الغريب المصنف» ولكنى لم أجد- تحت هذه العناوين- تلك المادة التى استشهدت بها هنا من المخصص، مما يدل على زيادتها عما فى الغريب المصنف.

ومن أمثلة ذلك:

١- باب أسنان الأولاد[٣].

٢- باب القصار من الناس[٤].

ثالثا: وجدت بابا مشتركا بين ابن سيده، وأبى عبيد، وإن كان العنوانان مختلفان عن بعضهما بعض الشىء.

ففى الغريب المصنف (ورقة ٢٦١): «باب الرَّضاعة والإغلال» وفى

١- انظر: المخصص: ١/ ١٤٤، ١٤٥.

٢- انظر: السابق: ٣/ ٧٠.

٣- انظر: الغريب المصنف- ورقة ٢٤، والمخصص: ١/ ٣٨، ٣٩.

٤- انظر: الغريب المصنف ورقة ٩، والمخصص: ٢/ ٧٣.

المخصص (١/ ٢٦): «الرضاع والفطام والغذاء وسائر ضروب التربية».

وبالمقارنة بين البابين- فى الكتابين- وجدت ما يلى:

١- أن المادة الموجودة فى «المخصص» تحت هذا الباب، والمنسوبة لأبى عبيد: غير موجودة فى «الغريب المصنف» تحت «باب الرضاعة» ويبدو أن ابن سيده، قد نقلها من باب آخر، أو من مصدر آخر يخص أبا عبيد.

٢- أن هذه المادة: منسوبة- فى الغريب- للأصمعى، بينما هى فى المخصص: منسوبة لأبى عبيد، مما دل على صدق ما قيل، من أن ابن سيده يهتم بالنسب إلى المراجع التى استقا منها، حتى ولو أهمل ذكر اللغوى، صاحب القول.

٣- أن ابن سيده لم ينقل النص بحذافره، بل تصرف فيه.

وها هو ذا نص آخر من نصوص «الغريب المصنف» ليمكن المقارنة بينه وبين نص من نصوص «المخصص» المذكورة فى هذا البحث، تحت عنوان: «الرَّضاع، والفطام، والغذاء، وسائر ضروب التربية»[1].

فى باب: «الملح والإملاح»

قال أبو عبيد[2]:

«قال الأصمعى: المِلح والمماحة جميعا: الرضاع، وأنشدنا:

لا يُبعد الله رب العبا د، والمِلح ما ولدت خالدة

وأنشدنا- أيضا- لأبى الطمحان:

فإنى لأرجو ملحها فى بطونكم وما بسطت من جلد أشعث أغبرا

وذلك أنه كان نزل على قوم فأخذوا إبله، فقال أرجوا أن ترعوا ما شربتم

١- انظر: ص ٢٦١ من هذا البحث.

٢- الغريب المصنف: ورقة ٢٦١.

من ألبانها، وما بَسطت من جلود قوم كانت جلودهم قد يبست، فسمنوا منها».

ثم شرع أبو عبيد فى: «باب الرضاعة والإغلال فقال: قال أبو عبيد، قال الكسائى: الرضاعة فيها ثلاث لغات.... الخ.

وبالمقارنة بين نص «المخصص» المختار[١]، ونص «الغريب المصنف» تجد ما يلى:

١- أن ابن سيده نسب القول إلى أبى عبيد، وأهمل ذكر الأصمعى.

٢- أن ابن سيده قال: «ومنه قوله»، بينما الرواية فى «الغريب» هى: «وأنشدنا- أيضا- لأبى الطمحان»، وبذلك يكون ابن سيده قد أغفل اسم الشاعر، ولم يذكره.

٣- أن الرواية فى «الغريب» تفيد أن أبا الطمحان هذا: كان قد نزل على قوم، فأخذوا إبله، بينما رواية «المخصص» تفيد أنه نزل عليه قوم، فأخذوا إبله!

٤- أن مادة أبى عبيد، لم ينقلها ابن سيده بحذافرها، بل تصرف فيها.

ومن أمثلة تصرفه- أيضا-: أنه أصبح- كما يقول الطالبى نفسه[٢]- أقل اقتصارا على الغريب، ولذلك: «أغفل النوادر تماما، لأنها لا موضوع لها»[٣] كما أغفل «تلك القوائم الطويلة، فى أسماء السيف، ونعوته، كى يكتفى بوصف طيب مستوعب، لأنواع الأسلحة، من دون أن ينسى المستحدثة فيها كالدبابات والحسك، وغيره»[٤].

ولذلك قال المستشرق الأسبانى: كابانيلاس[٥]- فى هذا المجال-:

١- انظر: ص ٢٦١ من هذا البحث.
٢- المخصص: دراسة- دليل: ص٢٥.
٣- المعجم العربى: ١/ ١٤٦.
٤- المخصص: دراسة- دليل: ص ٦٢، ٦٣.
٥- مجلة منوعات من الدراسات العربية والعبرية- جامعة غرناطة- عدد أكتوبر ١٩٦١. بحث: المخصص لابن سيده المرسى: أول معجم موضوعى فى الغرب الإسلامى.

«وهناك شيء جدير بأن يوضع فى الاعتبار، وهو أن ابن سيده، حاول وضع توازن كامل فى النِّسب، فى كل الموضوعات السابقة، التى تناولها، وذلك من حيث: تنظيم المادة العلمية، متجنبا ما قد يكون غريبا أو شاذا. وكذلك فعل فى كتاب الأسلحة (٦/ ١٦- ١٣٥)، فقد أعطانا حديثا مختصرا ناجحا، بدلا من الأحاديث التقليدية المسهبة، والتى تذكر فيها الأسماء العديدة للسيف، وأشكاله وصفاته، فقدم لنا- على العكس من المنهج القديم- وصفا كاملا، لمختلف أنواع الأسلحة، دون أن ينسى الابتكارات الأكثر حداثة»

ألبير مطلق وابن سيده

ومن الغريب- أيضا- أن يذهب الأستاذ ألبير حبيب مطلق (صاحب: الحركة اللغوية فى الأندلس) إلى أن المخصص كان ناطقا بأسماء اللغويين الذين أخذ المؤلف عنهم، وليس باسم المؤلف نفسه[١].

وهذا تنقيص عجيب، ومحو أعجب لشخصية ابن سيده فى مخصصه!! ولو تحرى الباحث الأمر- على وجه الدقة- لعرف أن ابن سيده: أراد أن يوثق كل رأى لغوى نقله عن الغير، فأسنده إلى صاحب المصدر، الذى أخذه منه، ولم يسنده إلى نفسه، من باب الأمانة العلمية!

فهل كنا نصدقه لو أسنده إلى نفسه؟ وهل كان احترامنا له يزداد؟!

ولقد التمس الباحث له عذرا، فى ذلك الأمر- بعد ذلك- حينما قال[١]: «وربما كان السبب فى ذلك: أن اللغة عنده تؤخذ عن الأعراب، وقد كانت الأندلس غير قادرة- لذلك- على الإدلاء بدلوها فى هذا المجال، ولم يكن لعلمائها سوى النقل»

إذن: فابن سيده معذور- فى نظره- وهو- أيضا- ناقل أمين، يسند كل قول إلى صاحبه، حتى يزداد كتابه توثيقا.

١- الحركة اللغوية فى الأندلس: ص ٣٧٠.

لذلك كان على الباحث: أن يمتدح أمانة ابن سيده، ودقته فى نقله عن العلماء، لا أن يحاول أن ينقص من قدره، ويقلل من أثر شخصيته فى بناء مخصصه.

آراء ابن سيده فى مخصصه:

ذهب الأستاذ ألبير مطلق، إلى أننا «قد نستطيع أن نعثر على آراء ابن سيده، وخصوصا فى المشكلات النحوية والصرفية»[١].

وتعبيره هذا يشعرنا: بالتقليل المستوحى من «قد»

وبالمشقة البالغة فى العثور على هذه الآراء، والمستوحاة من «نستطيع أن نعثر على آراء ابن سيده»!!

وقد ضرب أمثلة لما عثر عليه، من آراء لابن سيده، فى ثنايا السفر الأول من المخصص- والتى وجدها فى أحد عشر موضعا- ثم قال:

«والواقع أن ملاحظاته ليست نادرة، وإنما هى ضائعة فى خضم الآراء، وليس لها كيان واضح»

وكأنه كان ينتظر من ابن سيده أن يعزل آراءه وحدها، وأن يجعلها فى مكان ظاهر وحدها، حتى يكون لها كيان واضح!!

لكن الواقع الذى خرجت به، من جولتى المتواضعة، فى ثنايا المخصص، يقول: إن ابن سيده: صاغ كتابه صياغة الجوهرى النقاد، الذى يختار مما بين يديه- من بضاعة لغوية مزجاة- أغلى الجواهر، وأحلى الدرر، ثم يضعها فى المكان اللائق بها وينضدها تنضيد الخبير!

وإذا رأى أن الأمر فى حاجة لتدخله برأى خاص به: فإنه كان يتدخل، ويدلى برأيه، مهما كانت المنزلة اللغوية لمن يستدرك عليه[٢].

١- الحركة اللغوية فى الأندلس: ص ٣٧٠.

٢- وانظر: ابن سيده... آثاره وجهوده فى اللغة: ص ١٤٢.

وقد تجولت فى ثلاثة الأسفار الأولى من المخصص، وخرجت منها بالاستدراكات الآتية:

١- استدرك على ابن دريد فى المواطن التالية: ٢/ ٦٥، ٧٣، ١٥٦، ٣/ ٥، ١٤٢، ١٥٦، ١٦١.

٢- واستدرك على الخليل بن أحمد (أو صاحب العين) فى المواطن التالية: ١/ ٣٥، ٢/ ٨٦، ١٢٨، ١٥٨، ١٦٤، ٣/ ٨٤، ١٢٠.

٣- واستدرك على أبى حاتم، فيما يلى: ١/ ١١٠، ١٤٤، ١٤٥.

٤- واستدرك على ثابت، فيما يلى: ١/ ١٤٥، ١٥١، ١٦٥.

٥- واستدرك على أبى على الفارسى، فيما يلى: ١/ ٧٤، ٧٥، ١١٦.

٦- واستدرك على أبى عبيد، فيما يلى: ١/ ٢٦، ٣٨، ٣٩، ٢/ ٣، ٦، ١٤٧.

٧- واستدرك على النضر، فيما يلى: ١/ ٣٨، ٣٩.

٨- واستدرك على أبى زيد، فيما يلى: ١/ ١٥١، ٣/ ٧٢.

٩- واستدرك على ابن السكيت، فيما يلى: ١/ ٢٦، ٣/ ٧٠.

١٠- واستدرك على ابن الأعرابى، فيما يلى: ٣/ ٧١.

هذا بالإضافة إلى استدراكات أخرى مختلفة، فى المواطن التالية: ٢/ ٤، ٢٤، ٤٨، ٥٢، ٩١، ١٠٥، ١١٢، ١٢٤، ١٢٨، ١٢٩، ١٤٤، ٣/ ٣، ١٨، ٢٩، ٢٩، ١٢٥، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٤، ١٤٨، ١٥٦، ٤/ ١٣.

ويبلغ مجموع هذه الاستدراكات (٥٨) ثمانية وخمسون استدراكا، سجَّلت معظمها، وسوف أذكر نماذج منها، تدلنا دلالة واضحة، على بروز شخصية ابن سيده- فى مخصصه- وعلى أنه لم يكن مجرد جامع لمفردات اللغة، وإنما كان يقظا لما يمليه، فإذا رأى أنه فى حاجة لتدخله الشخصى فيما

يعرض من آراء: تدخل، وإلا احترم نفسه، وأملاه كما حفظه، ووعته ذاكرته[١]!

وإليكم أمثلة من استدراكاته على علماء العربية!

١- فمن استدراكه على ابن دريد[٢]:

«ابن السكيت: إذا كان هشا سريعا للمعروف، قيل: إنه لخِرّق من الرجال. وفلان يتخرق فى ماله، إذا كان يتصرف فيه بالمعروف.

ابن دريد: الجمع أخراق ومخاريق.

على[٣]: ليس مخاريق جمع خِرق، إنما هو جمع مخراق، وهو فى معنى خِرق».

٢- ومن استدراكه على تعبير أبى حاتم[٤]:

«أبو حاتم: اللحح: التزاق فى العين وصُلاق، وقد لححت عينه تلحح، بإظهار التضعيف، فى الماضى والآتى.

على: هذا عِىّ لأنه إذا كان فى الماضى: كان فى الآتى أجدر، لأن حركة الثانى فى الماضى: بنائية، وحركة الثانى فى المضارع: إعرابية».

٣- ومن استدراكه على أبى عبيد[٥]:

«أبو عبيد: الشارخ: الشاب، والجمع: شَرْخ، وأنشد:

إن شَرْخ الشباب والشَّعَرَ الأسـ ـود ما لم يعاص كان جنونا

١- وانظر: ابن سيده... آثاره وجهوده اللغوية: ص ١٤٠.

٢- المخصص: ٣/ ٥.

٣- تلحظ أنه عندما يستدرك ابن سيده- على أحد- يذكر اسمه الأول (على) أو يقول: (قال على).

٤- المخصص: ١/ ١١٠.

٥- السابق: ص ٣٨، ٣٩.

على: هذه عبارة أبى عبيد، وقد أساء من وجهين:

أحدهما: أنه ظن الشَّرْخ- فى البيت- جمعا لشارخ- الذى هو الصفة- وإنما الشَّرْخ- فى البيت-: تمام الشباب.

يقول الشاعر: إن موهة الشباب[١]، وسواد الشعر: داعيان إلى الجنون»!

٤- ومن أمثلة استدراكه على صاحب العين[٢]:

«صاحب العين: ألقى الكلام على عواهنه: لم يتدبره، وقيل: لم يبال، أصاب أم أخطأ، وقيل: قاله من قبيحه وحسنه.

قال على[٣]: حقيقته أيضا: أنه قال ما ألم به وحضره، لأن العاهن: الحاضر».

٥- ومن أمثلة استدراكه على ثابت[٤]:

«ثابت: وكلت أسنانه وَكَلا، وأكلت أكلا.

على: قد قصر سيبويه إبدال الهمزة من الواو المفتوحة، على: أناة وأحد.

فإما أن يكون أكِل ووكِل مما لم يعرفه سيبويه، وإما أن يكونا لغتين على طريق البدل».

٦- ومن استدراكه على أبى زيد[٥]:

«أبو زيد: دقمته أدقَمُه وأدقِمُه دقما، وأدقمته: كسرت أسنانه.

ودمقته أدمقه دمقا.

١- أى: ترقرق الماء فى وجه الشباب.

٢- المخصص: ٢/ ١٢٨.

٣- نلحظ أنه عندما يستدرك ابن سيده- على أحد- يذكر اسمه الأول (على) أو يقول: (قال على).

٤- المخصص: ١/ ١٥٣.

٥- السابق: ١/ ١٥١.

على: ظنه أبو زيد من المقلوب، وهو خطأ، لأن الأفعال المقلوبة لا مصادر لها».

٧- ومن استدراكه على ابن السكيت[١]:

«ابن السكيت: يئس من ذلك، وأيس.

على: ليس بلغة، ولكنه مقلوب، بدليل أنه لا مصدر له.

فأما إياس- اسم رجل- فمن قولهم: آسه خيرا، أى: عاضه».

٨- ومن استدراكه على ابن الأعرابى[٢]:

«ابن الأعرابى: رجل شِرِّير وشرِير، والجمع: أشرار.

على: أشرار جمع شرير، وأما شرِّير: فلا يكسر».

٩- ومن استدراكه على النضر[٣]:

«النضر: جمع الشرخ شروخ، وشروخ شُرَّخ على المبالغة.

على: ليس الشروخ جمع شرخ على أنه صفة، لأنا لم نسمعهم وصفوا به، لم يقولوا رجل شرخ، إنما الشروخ عندى: جمع شارخ، كجلوس وسجود، جمع: جالس وساجد.

وبعد: فهل هذا الكم من الاستدراكات الواضحة، والتى وجدتها فى ثلاثة أسفار فقط: يشعرك بأنها «ضائعة فى خضم الآراء» كما يقول (مطلق)[٤]؟!

وهل بعدما قرأناه، وعلمناه عن مواقف ابن سيده من علماء العربية، وتصحيحه لكثير من آرائهم: نستطيع أن نوافق الطالبى على قوله[٥]:

١- المخصص: ٣/ ٧٠.

٢- السابق: ص ٧١.

٣- السابق: ١/ ٣٨، ٣٩.

٤- انظر: الحركة اللغوية فى الأندلس: ص ٣٧٠.

٥- المخصص: دراسة- دليل: ص ٣٢.

إن ابن سيده «لا يكاد يتخذ موقفا، ولا يكاد يفوّق تأويلا على تأويل، ولا قولا على قول!»

أعتقد أن الحق فى جانب ابن سيده، والأمثلة السابقة- وغيرها- خير دليل على إيجابيته فى مخصصه.

اختيار ابن سيده لألفاظ مخصصِهِ

لو تجول أى باحث فى جنبات المخصص لأحس بلمسات ابن سيده، فى كل كلمة كتبت فيه، كما أحس بها الطالبى، فجعلته يقول[١]:

«إن الحرص على انتقاء اللفظة الفنية، والمصطلح الخاص: هو ميزة المخصص الكبرى!

وهو ما يلاحظ فى كل فصل من فصوله، سواء فى وصفه للمحراث (١٠/ ٥٢) أو فى وصفه للأقمشة، وتقسيمها إلى أصناف، حسب المواد المستعملة، وجودة النسج، كقوله:

الثخين: جيد النسج، كثير اللُّحمة.

والسكب: ضرب من الثياب رقيق. كأنه سكب ماء من الرقة[٢].

وكذلك شأن المؤلف، فى تحرى اللفظ الصالح الدقيق، فى حديثه عن البناء وآلاته ومواده (٥/ ١٢٣- ١٢٦) وفى وصفه للأسلحة (٥/ ١٦- ٨٧) أو السفن (١٠/ ٢٣- ٢٩) وفى حديثه عما ذكر من صناعات، كالخزازة (٤/ ١١١- ١١٥) والنجارة (١١/ ١٩- ٢٦) والحدادة (١٢/ ٢٥٨) وفى غير هذه المواضع».

حسن اختياره للموضوعات من ثنايا مصادره

على الرغم من تقيد ابن سيده- فى مخصصه- بدائرة معينة، هى دائرة

١- المخصص: دراسة - دليل: ص ٦٦.

٢- المخصص: ٤/ ٦٤، ٦٥.

علماء العربية الثقات، القدامى، إلا أنه «كثيرا ما أحسن الاختيار والانتقاء من الكتب العديدة التى تصفحها[١]» (قرئت عليه).

ويعنى ذلك: أنه لم يكن مجرد ناقل أعمى، لا يميز بين ما ينقله! بل كان له اختيار حسن، وانتقاء جيد.

وقد انعكس ذلك على موضوعاته التى ملأ بها مخصصه، وعلى طريقة عرضه لها، واهتمامه بأجزاء معينة منها.

ومن أمثلة ذلك: «أن ابن سيده- فى الفصول التى خص بها الكائن البشرى- لا يحدثك مثلا عن الأخلاق التقليدية، التى أفاض فيها العرب، كالبخل واللؤم فقط (٣/ ١٥) بل يعقد- أيضا- بابا للظرف (٣/ ٣٦).

وإذا ما حدثك عن النساء: لا يكتفى بذكر المحاسن والمساوئ- كما خلدها شعراء الجاهلية والإسلام- بل يفسح المجال للحديث- أيضا- عن الحُلى، والتجمل، والرشاقة، والأناقة النسائية[٢] (٤/ ٣٤- ٥٩) وهو يمر على ذكر الهودج، ويطوى أمره طيا فى بعض أسطر (٤/ ٣٤) ليسهب فيما هو أقرب للحضارة والتمدن»[٣].

وبعد هذا الكلام المدعوم بالأمثلة والشواهد: أعتقد أنه لا داعى لأن نلتفت إلى ما ذهب إليه صاحب «الحركة اللغوية فى الأندلس» من أن ابن سيده «لم يكن يلجأ إلى التمييز، أو التفضيل، بل يرصف الآراء بغير أن يقدم واحدا على واحد، وهذا مما يزيد فى طمس شخصيته»[٤]!!

خاصة وأن صاحب هذا القول: قد أطلقه على عواهنه، ولم يستدل عليه بدليل ما!!

١- المخصص- دراسة- دليل: ص ٦١.
٢- وانظر: المخصص: أول معجم موضوعى.
٣- المخصص- دراسة: ص ٦١، ٦٢.
٤- الحركة اللغوية فى الأندلس: ص ٣٧١.

تعاريف المخصص:

ومما يشير بأصابعه، إلى أثر شخصية ابن سيده، البارزة- فى مخصصه- الاهتمام بالتعاريف الخاصة بالمواد اللغوية الغريبة، وذلك حتى يجعلها مأنوسة، وقريبة إلى الأذهان، وإلى قراء مخصصه.

وقد تميزت هذه التعاريف «بالهندسة، والتنسيق، والفضل- يرجع فيها موفورا-: لبصير دانية، الذى اختار ورتب»[١] ولم ينقل نقلا عشوائيا، لمجرد ملء فراغ الكتاب بمواد لغوية.

وإن شئت فانظر النماذج الخمسة، التى ذكرتها قبيل ذلك[٢].

وها هو ذا نص سادس، تحت عنوان:

«أسنان الأولاد، وتسميتها من مبدأ الصغر إلى منتهى الكبر»

قال فيه ابن سيده[٣]:

صاحب العين: الفاقع: الغلام المتحرك، وقد تفقّع، وأنشد:

بنى مالك إن الفرزدق لم يزل يجر المخازى، مذلدن أن تفقّعا

ثابت: فإذا قوى وخدم: فهو حزوَّر، وأنشد:

لم يبعثوا شيخا ولا حزوَّرا بالفأس إلا الأرقب المصدَّرا

قال: والحزوَّر: مأخوذ من الحزورة، وهى الأكيمة الصغيرة.

وقيل: الحزوّر: الممتلئ شبابا.

وقيل: هو حزوَّر، من عشر إلى خمس عشرة.

أبو عبيد: المترعرع، كالحزوَّر.

١- المخصص: دراسة- دليل: ص ٣٣.

٢- ص ٢٦٠- ٢٦٣ من هذا البحث.

٣- المخصص: ١/ ٣٣، ٣٤.

وقال مرة: الغلام المترعرع: المتحرك.

ابن دريد: غلام رعرع، ورعراع، ولا يكون ذلك إلا مع حسن الشباب.

أبو حاتم: المطبِّخ: المترعرع، وقيل: هو أملأ ما يكون شبابا وأرواه.

ابن السكيت: المُلِمُّ كالمترعرع.

أبو عبيد: وكذلك اليافع، قال: وقد أيفع.

وهذا الحرف على غير قياس، والجمع أيفاع، وغلام يفعة، مثل الواحد على غير قياس أيضا. قال سيبويه: ومما جاء مؤنثا، صفة للمذكر والمؤنث: هذا غلام يفعة.

فانت تلحظ معى- من ثنايا هذا النص- والنصوص السابقة الذكر: ذلك التنسيق بين الأقوال، وذلك الطواف حول الكلمة، حتى تستوفى حقها من المعنى.

كما تلحظ- أيضا- السمة السائدة فى المخصص، وهى: أن شرح المفردات «لا يكتسى أبدا شكل مجهود فردى، بل هو دائما ثمرة عمل جماعى، تشارك فيه [بترتيب من ابن سيده] ثُلة من أئمة اللغة، تنير- بمختلف أقوالها- المفرد من شتى نواحيه: المعنوية، والصرفية، والنحوية أحيانا.

إن شروح المخصص- كما رأينا- تأتى حسنة التنسيق، مرضية....

ويزيد هذه الشروح بعض إيضاح: المترادفات والشواهد»[1].

تعاريفه الخاصة:

وقد كان ابن سيده- حين يجد التعريف اللغوى، الذى بين يديه: ليس مناسبا، ولا وافيا بالغرض، ولا كاشفا لماهية المعرّف- فإنه كان يتدخل بنفسه.

ولذلك كان أحيانا ما يعتمد- فى تقديمه لبعض الأبواب أو الموضوعات- على

١- المخصص: دراسة- دليل: ص ٣٣، ٣٤.

مقدمة لغوية مناسبة، من معارفه اللغوية، لم يكن ينص فيها على أسماء علماء بأعيانهم.

ومن ذلك:

١- قوله فى «الخصال المحمودة والمذمومة»[١]:

«الخصَلة: الفضيلة والرذيلة تكون فى الإنسان، والجمع: خصال.

والخلَّة: الخصلة، والجمع كالجمع».

٢- وقوله فى «كتم السر»[٢].

«السرّ: ما كُتم، والجمع أسرار.

وقد سارَرته سِرارًا ومُسارَّة».

٣- وقوله فى «باب السر»[٣].

«السرُّ: ما أخفيت، والجمع أسرار، وقد أسررت الأمر.

وسارَرت الرجل سارَّة وسِرارًا: أعلمته بسرى، والاسم: السَّرَر».

٤- وقوله فى «الخيانة والغدر»[٤].

«الخَوْن: أن يؤتمن الإنسان فلا ينصح.

وقد خانه خونا وخيانة، وخانة، ومخانة، واختانه، وفى التنزيل «أنكم تختانون أنفسكم».

ورجل خائن وخائنة، وخؤن، وخوَّان، والجمع: خَوَنَةَ، وخُوَّان.

وقد خنته العهد والأمانة، وخونت الرجل: نسبته إلى الخَوْن.

وقالوا: خانه سيفه- على المثَل-: إذا نبا، وخانه الدهر: نبا عنه، وتغير عليه،

١- المخص: ٢/ ١٥٧.

٢- السابق: ٣/ ٢٠.

٣- السابق: ص ٧٥.

٤- السابق: ٧٦.

من اللين إلى الشدة».

٥- وقوله فى «النميمة»[١]:

«النّمّ والنميمة: التوريش والإغراء، ورفع الحديث على جهة الإشاعة والإفساد».

ومثل هذا الإتقان- فى الأغلب الأعم من تعاريف المخصص- يغفر بعض الهنات التى لاحظها بعض الباحثين، على بعض تعاريفه، التى ندَّت عن هذه القاعدة[٢]، فلم تكن واضحة كل الوضوح من وجهة نظرهم.

وعذر ابن سيده: أنه ناقل عن علماء الأمة السابقين، فى المجال اللفظى.

ثم إنه: ليس له فى المجال العملى، الذى يعتمد على الرؤية!!

حرصه على جمع معانى اللفظ وتعاريفه:

وقد كان من حرصه على أن يقف القارئ على كل معانى اللفظ وتعاريفه: يذكِّره بأنه قد سبق معنى آخر لهذا اللفظ، ثم يذْكر هذا المعنى.

وهذا إن دل على شىء: فإنما يدل على يقظته التأليفية، ثم على: معرفته بكل خوافى كتابه.

ومن أمثلة ذلك:

١- قوله: فى «ضعف العقل»[٣]:

«أبو عبيد: الهِجْرَع: الأحمق.

وقد تقدم أنه: الطويل، والقِصْل، والمجْع.

٢- وقوله فى «الشجاعة»[٤]:

«ابن السكيت: الليث: الذى لا يهولُه شىء، بين الليوثة.

١- المخصص: ٣/ ٩٠.

٢- انظر: المخصص: دراسة- دليل: ٣٤- ٣٦.

٣- المخصص: ٣/ ٤٦.

٤- السابق: ص٥٩.

والمِذْره: الذى يُقدّم فى اليد عند القتال.

وقد تقدم أنه: المقدم فى اللسان والخصومة».

٣- وقوله فى «ما يستحسن من صفات النساء»[١].

«صاحب العين: الهبيَّخة: الجارية الثَّارَّة.

وقد تقدم أنها: المرضعة، وأنها: الجارية عامة.

٤- وقوله فى «الجراءة والبذاء فى النساء»[٢]:

«أبو عبيد: العِنْفِص: البذية، القليلة الحياء.

وقد تقدم أنها: القصيرة»

وبعـــــــد:

فهل يمكن أن يقال- بعد كل هذا- إن ابن سيده «لم يخترع شيئا ولم يفتح بابا- فى تصنيف المعاجم- جديدا»[٣].

أو يمكن أن يقال: إنه «لا يكاد يتخذ موقفا، ولا يكاد يفوق تأويلا على تأويل، ولا قولا على قول؟!»[٤]

والله هو الموفق، والهادى إلى سواء السبيل.

مدينة نصر فى
٢١ من رمضان ١٤١٦ هـ.
١٠ من فبراير ١٩٩٦م.

د. فوزى يوسف الهابط

كلية اللغة العربية بالمنوفية- قسم أصول اللغة.

١- المخصص: ٣/١٥٧.
٢- السابق: ٤/ ١٥.
٣- انظر: ص ٢٥٥ من هذا البحث.
٤- انظر: ص ٢٧٣ من هذا البحث.

ثبت بمصادر ومراجع البحث

١- ابن سيده: آثاره وجهوده فى اللغة- د. عبد الكريم شديد النعيمى- منشورات وزارة الثقافة العراقية سنة ١٩٨٤م.

٢- الأعلام- الزركلى- دار العلم للملايين- ط١٠.

٣- إنباه الرواه على أنباه النحاه- القفطى- تح. محمد أبو الفضل إبراهيم- نشر: دار الفكر العربى بالقاهرة.

٤- البحث اللغوى عند العرب- د. أحمد مختار عمر- نشر: عالم الكتب بالقاهرة.

٥- بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس- الضبى- نشر: مجريط ١٨٨٤م.

٦- بغية الوعاة- السيوطى- تح. محمد أبو الفضل إبراهيم- ط. عيسى البابى الحلبى بمصر.

٧- تاريخ آداب اللغة العربية- جرجى زيدان- مراجعة: د. شوقى ضيف- نشر: دار الهلال بالقاهرة.

٨- تاريخ الأدب العربى- بروكلمان- ترجمة: د. رمضان عبد التواب- نشر: دار المعارف بمصر.

٩- تهذيب اللغة- الأزهرى- تح. عبد السلام هارون- نشر: دار القومية العربية للطباعة.

١٠- الحركة اللغوية فى الأندلس- ألبير حبيب مطلق- نشر: المكتبة العصرية، بصيدا وبيروت.

١١- الديباج المذهب- ابن فرحون- تح. د. محمد الأحمدى أبو النور- نشر: دار التراث بمصر.

١٢- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب- ابن العماد الحنبلى- نشر: المكتب التجارى ببيروت.

١٣- الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس- ابن بشكُوال- نشر وتصحيح: السيد عزت العطار ١٩٥٥م.

١٤- ضحى الإسلام- أحمد أمين- ط ٨ مكتبة النهضة العربية.

١٥- طبقات اللغويين والنحويين- الزبيدى- تح. محمد أبو الفضل إبراهيم- نشر دار المعارف بمصر.

١٦- غاية النهاية فى طبقات القراء - ابن الجزرى- تح. برجشتر أسر- مكتبة المتنبى بالقاهرة.

١٧- الغريب المصنف- أبو عبيد القاسم بن سلام- مخطوط- نسخة عارف حكمت.

١٨- الفهرست- النديم- تح. رضا تجدد- ط. طهران.

١٩- مجلة: منوعات من الدراسات العربية والعبرية- إصدار جامعة غرناطة فى أكتوبر ١٩٦١ باللغة الأسبانية.

٢٠- المحكم- ابن سيده- تح. السقا، ونصار- ط. عيسى البابى الحلبى.

٢١- المخصص- ابن سيده- ط. بولاق.

٢٢- المخصص: دراسة- دليل: محمد الطالبى- ط. المط العصرية بتونس ١٩٥٦م.

٢٣- مرآة الجنان وعبرة اليقظان- اليافعى- نشر: الأعلمى- بيروت.

٢٤- معجم الأدباء- ياقوت الحموى- نشر: دار الفكر للطباعة ١٩٨٠م.

٢٥- معجم البلدان- ياقوت الحموى- تحقيق: فريد الجندى- نشر: دار الكتب العلمية- بيروت.

٢٦- المعاجم العربية موضوعات وألفاظا- د. فوزى الهابط- ط. دار الولاء بشبين الكوم.

٢٧- المعجم العربى- نشأته وتطوره- د. حسين نصار- نشر: مكتبة مصر.
٢٨- معجم المعاجم- أحمد الشرقاوى إقبال- نشر: الغرب الإسلامى بيروت- ط ١٩٨٧م.
٢٩- النوادر- أبو مسحل الأعرابى- تح. د. عزه حسن- نشر: مجمع اللغة العربية بدمشق.
٣٠- وفيات الأعيان- ابن خلكان- تح. د. إحسان عباس- نشر: دار صادر بيروت.

* * *